

الباب الثاني

عصر صدر الإسلام والدولة الأموية

الأدب الإسلامي

عوامله، مصادره، أنواعه، طبائعه :

تركنا العصر الجاهلي والجزيرة العربية يهدر جوفها من ضرم الحياة هدير الحميم المكظوم. ونريد بجوفها الحجازَ بعد ما خمد النشاط العربي في الجنوب باستيلاء الفرس على اليمن، وفي الشمال بإلغائهم إمارة اللخمين في العراق، فارتد تيار النهضة العربية إلى الحجاز وتدفق في مدنه، ولا سيما مكة؛ لأن مكة يومئذ كانت مثابة الشرب لوجود البيت، ومقلِّ العروبة لاعتصامها بالصحراء من النفوذ الأجنبي، ومجمع الثروة لوقوعها في طريق القوافل الآتية من الجنوب تحمل متاجر الهند واليمن إلى الشام ومصر؛ فهي سوق تجارية ومحجَّة دينية يؤمها العرب من أطراف الجزيرة يشتررون منها السلع الأهلية والأجنبية، ويقضون مناسك الحج، ويشهدون موسم عكاظ، ويتذوقون في ظلال الأشهر الحرم - وهي الهدنة العامة المقدسة - نعمة السلام ولذة الهدوء، ويصلون بينهم ما قطعته أسنة الرماح في الغارات والحروب. وكانت قريش قطب الرحا لهذه الحركة الدينية والاقتصادية والاجتماعية لولايتها على الكعبة، ورياستها في عكاظ، وزعامتها في التجارة، وغناها من الإيلاف، وتقلبها في البلاد، وتمرسها في الأمور، وصلتها بمختلف الشعوب، فأخضعت العرب لسلطانها بالدين والشرف والمال، وفرضت عليهم لغتها وأدبها، فكادت اللهجات بفضلها تتحد، والقلوب بدليلها تتجه نحو غاية واحدة، وكان اليهود في يثرب واليمن فوق نشاطهم الصناعي والزراعي يشيعون أكل الربا وينشرون تعاليم التوراة وأخبار النبوات. وكانت النساطرة واليعاقبة من المسيحيين يبشرون بالإنجيل، ويدعون إلى الحياة الأخرى، ويحملون معهم تأثير اليونان والرومان في الفلسفة والتشريع، ويهينون الأذهان لكلمة الله. وكان الشعراء ينتقلون من سوق إلى سوق، ومن ماء إلى ماء، ينشدون أهازيج الحماسة على أوتار العصبية، فيؤرثون نار العداوة والخلاف بين القبائل من جهة، ويذيعون وحدة الخلق والعادة واللغة من جهة أخرى، ويمهدون للنفس الرغبة السجينة سبيل النهوض إلى الغاية

التي يدعوهم إليها الله، ثم كان الأعراب في قفار البادية يفتك بهم الجهل والجذب والحرب، ويعانون إلى ذلك عنت الكبراء. وأثرة الشيوخ، وفقد الأمن، وتوزع الثروة على مقتضي السيادة والقوة. ناهيك مما يقاسونه في أرزاقهم من فحش الربا وأكل السُّحت وتطفيف الكيل وكَلْب الزمان. فكان من جرّاء هذه المادّية القبيحة، والطبيعة الشحيحة، والنظام الفاسد، أن تهيأت الطبائع السليمة إلى حياة أرقى ومثل أعلى مما هم فيه. ولكن العرب كما قال ابن خلدون: «أصعب الأمم انقياداً بعضهم لبعض، للغلظة والأنفة وبعد الهمة والمنافسة في الرياسة، فقلما تجتمع أهواؤهم. ومن أجل ذلك لا يحصل لهم الملك إلا بصبغة دينية من نبوة أو ولاية أو أثر من الدين على الجملة». وكان ذلك فعلاً طريق الإصلاح الذي خرج منه العرب إلى العالم ليلغوه الرسالة ويحكموه، فقد كان ظهور الإسلام في ذلك الحين نتيجة محتومة لتلك الحال، ونقضاً صريحاً لتلك الحياة. تعرف ذلك جلياً من تسمية القرآن للدين بالإسلام ولما قبله بالجاهلية. ففي تلك التسمية كل الفرق بين الحياتين والعقليتين في المبدأ والغاية، إذ الجهل معناه السفه والحمية والأنفة - وهي ملاك الأخلاق في الجاهلية، والإسلام معناه السلام والتسامح والإنقياد إلى الله - وهي قوام الدين الجديد الذي يقول: ﴿وعباد الرحمن الذين يمشون على الأرض هوناً، وإذا خاطبهم الجاهلون قالوا سلاماً﴾^(١) وبمعنى ذلك قول عمرو بن الأهتم يفاخر الأحنف بن قيس، وقد اجتمعاً للرياسة بين يدي عمر بن الخطاب: «إنا كنا وأنتم في دار جاهلية، فكان الفضل فيها لمن جهل، فسفكنا دماءكم، وسببنا نساءكم؛ وإنا اليوم في دار الإسلام والفضل فيها لمن حلم. فغفر الله لنا ولك» فغلب على الأحنف.

فالإسلام إذن قد قلب العقلية العربية قلباً، وشن على الجاهلية حرباً، ورسم للاجتماع مثلاً أعلى يخالف ما ألفوه، ويناقض ما عرفوه:

فالشجاعة، والشهامة، والكرم الموفى إلى السرف والتلف، والتفاني في الإخلاص للقبيلة والقسوة في الانتقام، والثأر ممن تعدى على النفس أو على الأهل بالقول أو بالفعل، هي أصول الفضائل عند الجاهلية، أما الإسلام فقد جعل المثل الأعلى للإنسان الخضوع لله والانقياد لأمره، والقناعة والتواضع، ومجانبة التكاثر والتفاخر، ثم الصبر. وقد قال الله تعالى: ﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ﴾^(٢) وقال الرسول ﷺ في خطبة الوداع: «إن الله تعالى قد أذهب عنكم نخوة الجاهلية وفخرها بالآباء كلكم لآدم؛ وآدم من تراب، ليس لعربي على عجمي فضل إلا بالتقوى»^(٣) فماتت بذلك العصبية القومية والجنسية، وأصبحت

(١) سورة؛ الفرقان، الآية: ٦٣. (٢) سورة: الحجرات، الآية: ١٣.

(٣) أخرجه أبو داود في كتاب: الأدب، باب: في التفاخر بالأحساب (الحديث ٥١١٦) بنحوه، وأخرجه الترمذي في كتاب: المناقب، باب: فضل الشام واليمن (الحديث ٣٩٥٦) بنحوه.

السيادة للدين لا للنسب، والإخاء في الله لا في العصب. وهذا التغيير في العقلية يستلزم حتماً تغيير ما يصدر عنها من فكر وتصوير وقول: فالشاعر الذي كان يستلهم شيطانه قصائد المفارقة والمنافرة والهجاء: والخطيب الذي كان يستقطر من لسانه سموم للعداوة والبغضاء؛ والفارس الذي كان يرتع ليله ونهاره في الدماء والأشلاء؛ والرئيس الذي كان يعيش على امتياز الرؤساء؛ والغني الذي كان يفجر ويشري بدماء الفقراء، وقفوا جميعاً صامتين منصفين لدعوة الإسلام لا يقولون ولا يفعلون إلا ما يأمر به الله أويقره الرسول. وأصبح القرآن والحديث دستور الأمة. ويسنان الشرائع، ويرسمان الآداب. ويهذبان الأخلاق ويقرآن في القلوب المشركة المجرمة كلمة التوحيد وحقيقة البر، ويضيفان نظاماً جديدة للأسرة ولأمة تغاير ما كان عليه العرب من قبل، وتسائر ما سيكونون عليه من بعد. فصاقت دائرة الشعر في عهد الرسول لموت العصبية وقوة الروح الدينية، وانضوت الخطابة تحت لواء القرآن تدعو إليه، وتقابل الوافدين عليه، وتسير على هديه وتقتبس من نوره. وفتضت الدعوة الكبرى نظام الرسائل فنشأت على نمط جديد، وقلّت الأمية لحاجة الدين إلى الكتابة وتشجيع النبي عليها بعد موقعة بدر، ونقل الدواوين كلها إلى العربية. وأخذ المعادون للدين يعارضون القرآن ويجادلونه، والموالون له يحفظونه ويدارسونه. ودعا اتساع ربة الإسلام إلى استنباط أصول الأحكام من مصادر الدين، والاجتهاد بالرأي فيما لم يرد فيه نص. فتجلى صفاء العبقرية العربية ذات المنطق الموهوب فيما قضى به علي وعمر وزيد بن ثابت وعبد الله بن عباس وعبد الله ابن مسعود وأبي بن كعب ومعاذ بن جبل؛ وزدادت هذه الروح الفقهية المنطقية صفاء وجلاء بعد ذلك فيما شجر من الخلاف بين العلويين والأمويين والخوارج على أثر الخصومة بين علي ومعاوية.

على أن من الغلو أن نقول إن تعاليم الإسلام قد بلغت إلى كل نفس وأثرت في كل قلب حتى يكون تغيير العقلية العربية تاماً من كل وجه، فإن ذلك إن صدق على السابقين الأولين من المهاجرين والأنصار الذين أسلموا قبل الفتح لا يصدق على من أسلم من بعده، ولا على الأعراب المتمردين بطبيعتهم على كل قيد من دين أو قانون أو سلطان، فكانوا لجفائهم وغلظ قلوبهم أشد كفرةً ونفاقاً وأجدر ألا يعلموا حدود ما أنزل الله على رسوله. وكان من زعمائهم من يقبل على الإسلام كقيس بن عاصم، لا على أنه الدين الحق، ولكن على أن يكون له الأمر بعد الرسول. وقال النبي ﷺ: «إن مثل ما بعثني به الله من الهدى والعلم كمثل غيث أصاب أرضاً، فكان منها طائفة طيبة قبلت الماء فأنبتت الكلاً والعشب الكثير. وكان منها أجادبٌ أمسكت الماء فنفع الله به الناس فشربوا منها وسقوا وزرعوا. وأصاب طائفة منها أخرى إنما هي قيعان لا تمسك ماء ولا تنبت كلاً»^(١). ومصداق هذا

(١) أخرجه مسلم في كتاب: الفضائل، باب: بيان مثل ما بعث النبي ﷺ من الهدى والعلم (الحديث

٥٩١٢)، وأخرجه البخاري في كتاب: العلم، باب: فضل من عليم وعلم (الحديث ٧٩).

الحديث الكريم ثابت في بقاء البدو على نزعتهم الجاهلية من مهاجمة وحمية وشراب، وحدث الردة على أثر وفاة الرسول، وشيوع الغناء والشراب والغزل في مدن الحجاز، وانبعثت العصبية ونزاعها بين القحطانيين والعدنانيين، وبين الهاشميين والأمويين، واشتدادها في عهد بني أمية. وهذا يفسر لنا بقاء الشعر الأموي على نمط الشعر الجاهلي في طريقته وطبيعته دون أن يتأثر بروح الإسلام لا كثيراً ولا قليلاً، إذ كان جمهور الشعراء إنما يصدر عن البادية ويعبرون عن نوازي العصبية في الأحزاب والقبائل.

لم يكن تأثير الإسلام في العقلية العربية والفنون الأدبية آتياً من جهة عقيدته وشريعته وروحه فحسب، وإنما أثر فيها كذلك من جهة ما نشأ عنه من الفتوح والنزاع على الإمامة، فمن أثر الفتوح خروج العرب من جزيرتهم إلى الجهاد، وانتشارهم في مختلف البلاد، واستيلاؤهم على ممالك كسرى وقيصر، وامتزاجهم بالأجناس المتعددة، وتأثرهم بالمدينيات والعقليات المختلفة؛ فقد فتحوا العراق وهو وارث حضارة قديمة وموطن أمم عظيمة ونحل كثيرة، ومصروا فيه البصرة والكوفة. وفتحوا فارس وهي إحدى الدولتين اللتين حكمتا العالم القديم يومئذ وأثرنا في عقله وأهله. وفتحوا الشام وقد سادت فيه الثقافة الرومانية والديانة النصرانية بعد ما خلف فيه الفينيقيون والكنعانيون والمصريون واليونان والغسانيون آثاراً ظاهرة في العادات والاعتقادات والنظم؛ وفتحوا مصر وهي مهد المدنية والفرن، ومجمع الحضارتين اليونانية والرومانية، ومُتلقي الفلسفتين الشرقية والغربية؛ وفتحوا بلاد المغرب إلى جبل طارق، ثم ما وراء النهر إلى كشغر. وسكان هذه الممالك يرجعون إلى أصول سامية وحامية وآرية، ويدينون بأديان سماوية وأرضية، ويتكلمون بلغات فارسية وقبطية وعبرية وسريانية ويونانية ولاتينية، فأخضعهم العرب إخضاعاً مادياً وأدبياً وروحياً من طريق الفتح واللغة والدين، وخضع العرب لهم خضوعاً عقلياً وجنسياً باقتباس مدينتهم وعقليتهم وجنسياتهم من طريق المجاورة والمصاهرة والاسترقاق، وكان من ذلك التفاعل هذا الامتزاج العجيب الذي تولدت منه العلوم الشرعية والفنون الأدبية والحضارة الإسلامية التي طبقت الأرض ومهدت لرقى الإنسان الحديث.

هذا أثر الفتوح. وأما أثر الخصومة في الإمامة فذلك الجدل العنيف بين الفرق الأربع التي نجمت عن الخلاف في الخلافة بين علي ومعاوية، ذلك الجدل الذي اتسع به أفق الذهن العربي بالاحتجاج والاستنتاج، إذ كان اعتماده على تأويل القرآن، وانفعال الأحاديث، واستخدام الشعر في إثارة العصبية وتحبير الرسائل في القضايا السياسية والوصايا الدينية، وعقد المناظرات وإلقاء الخطب. ففي الحجاز حزب يزيد ابن الزبير، وفي الشام حزب يعضد بني أمية، وفي العراق الشيعة يدعون إلى بيت الرسول، والخوارج ينكرون

ويكفرون هؤلاء جميعاً ولكل حزب من هذه الأحزاب كما قلت رأي في الخلافة، ونظر في الدين، وحجة من الكتاب والسنة. وعدة من الخطابة والشعر. وحسبك أن تقرأ بعض جدلهم في الطبري والعقد الفريد وشرح النهج لابن أبي الحديد والكامل للمبرد، لتعلم أثر هذا الخلاف في عقلية العرب، وأثر هذه العقلية في فنون الأدب.

نستخلص مما تقدم أن أهم العوامل المؤثرة في الأدب الإسلامي هي: خمود العصبية الجاهلية في عهد الرسول، ثم استعارها في عهد بني أمية، ونشوء الروح الدينية، وتغير العقلية العربية، وتحسن الأحوال الاجتماعية والاقتصادية، وظهور الأحزاب السياسية، واتساع الفتوح الإسلامية وتأثير الأمم الأجنبية بلغاتها وعاداتها واعتقاداتها وأدبها. ثم أساليب القرآن والحديث، والمأثور الصحيح من الشعر الجاهلي والأمثال. وقد أجملت القول في آثار هذه العوامل اعتماداً على تفصيلها حينما تعرض لكل فن على حدة، فلندع ذلك الآن ولننتقل إلى مصادر الأدب الإسلامي.

مصادرُ الأدب الإسلامي

نستطيع أن نحصر هذه المصادر في القرآن؛ والحديث، والأدب الجاهلي وما نقل من الأدب الأجنبي.

١ - القرآن الكريم

القرآن أول كتاب دُوِّن في اللغة العربية؛ فدراسته ضرورية لتاريخ الأدب؛ لأنه مظهر الحياة العقلية والحياة الأدبية عند العرب في أواخر القرن السادس وأوائل القرن السابع للمسيح. وهو واضع النثر الفني ومنبع المعاني والأساليب والمعارف التي شاعت في أدب ذلك العصر. نزل بأسلوب بديع لا عهد للأذان ولا للأذهان بمثله؛ فلا هو موزون مقفى، ولا هو سجع يتجزأ فيه المعنى في عدد من الفقر، ولا هو مرسل يطرُد أسلوبه دون تقطيع ولا تسجيع؛ إنما هو آيات مفصلة متزاوجة يسكت عندها الصوت ويسكن الذهن لاستقلالها بالمعنى وانسجامها مع روح القارئ ووجدانه. فلما سمعه العرب وهم زعماء القريظ وأمراء البيان أكبروه وأنكروه، وعجزوا عن أن يردوه إلى نوع من أنواع الكلام المعروفة؛ فقالوا مضطربين: إنه شعر شاعر أو فعل ساحر أو سجع كاهن. ووصفهم إياه بأنه نوع من هذه الأنواع التي تشترك في فتنه العقل دليل على فعله القوي في نفوسهم.

والقرآن باعتباره كتاباً أحكمت آياته ثم فصلت من لدن حكيم خبير، لا يجرؤ النقد البياني على أن يطير في جنياته، وباعتباره معجزة الرسول تحدى به العرب أن يأتوا بسورة من مثله، تورع المسلمون عن أن يقلدوه فراراً من تهمة المعارضة، وتنزيهاً لكلام الخالق أن يتشبه به كلام المخلوق. ومما لا ريب فيه أن بعض المشركين والمنتبئين قد عارضوه إبطالاً لحجته، أو انتهاجاً لخبطته، على نحو ما ورد عن مسيلمة: «يا ضفدع نقي ما تقين، فلا الماء

تكدرين، ولا الشارب تمنعين»، ولكن الرواة أغفلوا ذلك إما تورعاً وإما ترفعاً، كما فعلوا بمعارضة ابن المقفع والمنتبي وأبي العلاء إن صح أنهم فعلوا ذلك. وهنا طائفة من متأخري الكتاب حاولوا الجري على أسلوب القرآن إعجاباً به فما حركوا في النفوس غير السخر والضجر لنزولهم عن رتبته وعجزهم عن لحاقه فكفوا. ولذلك لم يكن تأثير القرآن كبيراً من جهة إحدائه مذهباً كتابياً يتبعه الناس ويدور عليه النقد. أما تأثيره القوي فكان في نقله النثر من تلك الجمل القصيرة المسجوعة المفككة إلى تلك الصور الأنيقة التي تقرأها في أحاديث الرسول وخطبه وكتبه، وفي خطب الصحابة والتابعين ورسائلهم. جمل متزاوجة، متناسقة، متطابقة، متخيرة الألفاظ، حسنة التأليف، رائعة التشبيه، منطقية الغرض، تنفذ من العقل والقلب إلى الصميم. كذلك أثر في النثر بوضعه المثل لمعالجة القصص والوصف والاشترع والجدل المنتج والموعظة الحسنة، واستحدثه ألفاظاً وتركيب وموضوعات لا يعرفها العرب، فطلت أيه على طوال القرون قوة للخطيب وحلية للمشيء، يصرع بها كلامه فتميز بطلانها ونفاسها كما تتميز اللؤلؤة الفريدة في عقد من الجزع.

أسلوبه:

نزل القرآن منجماً في نحو ثلاث وعشرين سنة على حسب ما يعرض من الحوادث؛ منها ثلاث عشرة سنة في مكة نزل في خلالها ثلاث وتسعون سورة، وعشرة بالمدينة بعد الهجرة نزل فيها إحدى وعشرون. هذه السور الأربع عشرة ومائة تختلف في موضوعها وأسلوبها باختلاف الزمان والمكان والحدث، فكان من الحوادث والقضايا ما ينزل فيه الآية والآيات، ومنها ما ينزل فيه السورة. وكان الصحابة يحفظون أو يكتبون ما ينزل كلا على حدة، فلم يكن القرآن إذن خاضعاً لقانون التأليف من وحدة الموضوع ووحدة الأسلوب وعقد الأبواب على مقتضى الأغراض، وإنما تجمّع على هذه الصورة ودون بعد وفاة الرسول تبعاً لما كان يجده الكاتبون أولاً فأولاً محفوظاً في الصدور أو مسطوراً في الصحف. ثم رتب بوجه التقريب على حسب الطول والقصر لا على حسب تنزيله ولا على حسب موضوعه، فتكررت بعض القصص لتأكيد الإنذار أو لتشابه الأسباب، وتشتت وحدة الموضوع والأسلوب لنزوله متفرقاً في مكانين مختلفين وأزمان متراخية وأغراض متجددة، وهو في ذلك يختلف عن التوراة والإنجيل.

تشتمل السور المكية - وهي ثلثا القرآن - على أصول الدين وتشتمل المدنية على أصول الأحكام. وأصول الدين جماعها الإيمان بالله ورسوله واليوم الآخر، والائتمار بالمعروف والانتهاز عن المنكر؛ وهي أمور تتصل بالعاطفة والوجدان؛ فالدعوة إليها والحث عليها يقتضيان الأسلوب الشعري القوي المؤثّق الفعال بالقلب بقصصه الواعظة، وحكمه البالغة، وأمثاله السامية، ووعده الخالب، ووعيده المخيف، ولذلك تجد أسلوبها قصير

الأي، كثير السجع، رائع التشبيه، قوي المجاز. وأما أصول الأحكام من عبادات ومعاملات فهي موضوع السور المدنية، والتعبير عنها يقتضي الأسلوب المحكم الجزل الهاديء؛ وهدهد البيان يستلزم طول الجمل، وتفصيل الأي، ووضوح الغرض. على أن القرآن لا يصطنع في التشريع أساليب الفقه ولا تعريفات القانون، وإنما يسوق الأحكام في معارض الدعاية والهداية، لأن قصده الأول إنما هو إعلان التوحيد وإظهار الدين، وتطهير القلوب من أوضار الضلالة والجلالة والشرك؛ ولأن الدولة الجديدة لم تكن في عهد الوحي من الاتساع وتشعب الاجتماع بحيث تطلب التشريع المفصل.

إعجازه:

تناصرت الأدلة وانعقد الإجماع على أن القرآن معجز، وإنما الخلاف في سبب إعجازه. فمن قائل إنه شرف الغرض، وتنوع القصد، والإخبار بالغيب. ومن قائل إنه النصاحة الرائعة، والمذهب الواضح، والأسلوب الموثق ونحن إلى هذا الرأي أميل. فإن النعم الذين تحذوا به لم يكونوا فلاسفة ولا فقهاء حتى يكون عجزهم عن الإتيان بمثله معجزة، إنما كانوا بلغاء مصادع، وخطباء مصارع، وشعراء فحولاً. وفي القرآن من دقة التشبيه والتمثيل، وبلاغة الإجمال والتفصيل، وروعة الأسلوب، وقوة الججاج، ما يعجز طرق البشر، ويرمي المعارضين بالسكات والحضر.

لغته:

لغة قريش هي الأصل في لغة القرآن، لأن النبي ولد فيها وبُعث منها؛ ولأن لغتها تفضل سائر اللغات بحلاوة الجرس ودقة الوضع وإحكام النظم، وقبيلتها تشرف سائر القبائل بجوار البيت وسقاية الحاج وعمارة المسجد، ولكنه نزل كذلك بلغة بني سعد بن بكر؛ لأن الرسول ﷺ استرضع فيهم، وهي إحدى لغات العجز من هوزان وأفصحها، لقوله ﷺ: «أنا أفصح العرب بيد أي من قريش، وأني نشأت في بني سعد بن بكر».

وجاء في القرآن بعض ألفاظ من لغات عربية أخرى كقوله تعالى ﴿لَا يَلِيْنُكُمْ مِنْ أَعْمَالِكُمْ شَيْئًا﴾^(١) أي لا ينقصكم بلغة بني عبس، ثم وقع فيه من غير لسان العرب أكثر من مائة كلمة ترجع إلى لغات الفرس والروم والنبط والحبشة والعيوان والسريان والقبط، كالجبت والاستبرق والسندس والقسطاس والزنجبيل، وقد صقلها العرب على لسانهم، وأجروها على أوزانهم، فصارت بذلك عربية.

(١) سورة: الحجرات، الآية: ١٤.

أغراضه ومعانيه :

علمت أن من القرآن ما نزل بمكة ومنه ما نزل بالمدينة . فالمكي من سوره يشتمل على أهم ما جاء الرسول من أجله : ففيه توحيد الله بذكر صفاته وتمجيد آياته ، وتأييد الرسول بتحدي المكابرين ، وضرب الأمثال بأحوال الغابرين ، ورفض الأوثان وما يتصل بها من عادات واعتقادات ، وإثبات اليوم الآخر وما يتعلق به من جنة ونار وتبشير وإنذار ، ثم الإذن لرسول الله أن يجاهد الشرك بالسيف .

وأما المدني منها فيمتاز بوصف المغازي وذكر أسبابها ، وما يستفيده المؤمنون من نتائجها وأعقابها ، وسن الشرائع الدينية كالصلاة والزكاة والصوم والحج ، والاجتماعية كالأحوال الشخصية والمعاملات المدنية والحقوق الجنائية ، وما تستتبعه من قصاص وحدود ، وفي كل ذلك ترى الألفاظ مؤتلفة مع المعاني ، والمعاني متفقة مع الأغراض ، اتفاقاً دونه الفن والمنطق وليس فوقه إلا قدرة الله !

تأثيره :

شغل المسلمون بالقرآن وفرغوا له ، فكان دعاءهم في المسجد ، ونظامهم في البيت ، ومنهأجهم في العمل ، ودستورهم في الحكومة . فسرى هديهم فيهم مسرى الروح ونزل وحيه منهم منزلة الطبع ، وأثر في ألسنتهم وأفئدتهم وأنظمتهم ما لم يؤثره كتاب سماوي آخر في أهله . فأما تأثيره في اللغة وأدبها - وهو ما يعيننا الآن ذكره - فإنه خالط من القوم قلوباً قاسية فألانها ، وطباعاً جافية فأرقها ، وأحلاماً طافية فأقرها ، فكسب ذلك اللغة عذوبة في اللفظ ، ورقة في التركيب ، ودقة في الأداء ، وقوة في المنطق ، وثروة في المعاني ، ووسع دائرة اللغة باستحدثائه الألفاظ الدينية كالصلاة والزكاة والقيام والركوع والسجود والوضوء والمؤمن والكافر الخ ، واقتضائه علوماً جديدة كالنحو والصرف والاشتقاق لدفع اللحن عنه ، والمعاني والبيان والبديع لتقرير الإعجاز فيه ، وعلمي اللغة والأدب لتفسير غريبه وتوضيح مشكله ، والحديث والأصول والفقه والتفسير لاستنباط أحكام الشرع منه . وهو الذي ضمن بقاءها تلك القرون العديدة ، ونشرها في مجاهل الأصقاع البعيدة ، مصداقاً لقول الله تعالى : ﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ ﴾^(١) وحفظ القرآن يستلزم حفظ لغته .

قراءاته :

لم يكن امتزاج اللغات ولا اتحاد اللهجات تاماً من كل وجه عند انبثاق نور الإسلام ، وإنما بقي على نواحي الألسنة لُحون مختلفة كالفتح والإمالة ، والإظهار والإدغام ، والمد

(١) سورة: الحجر، الآية : ٩ .

والقصر، وتحقيق الهمز وتخفيفه، وترقيق الحرف وتفخيمه، وضم الهاء والميم في نحو عليهم وإليهم. فلما نزل القرآن بلغة قريش ولهجتهم لم يستطع من عداهم من العرب أن يتغلبوا في الزمن اليسير على الفطرة اللغوية، واللهجة الأمية، فقرأوه بلحونهم وأقرهم الرسول على ذلك تيسيراً للقراءة وتسهيلاً على الناس.

فلما اختبلت الألسنة، واضطربت السلاشق، وزاغت القلوب بعد اتساع الفتوح وانتشار العرب وانشعاب الفرق، نشأ من جهلهم بالهجاء، ومن شدة اختلافهم في المنطق والأداء ومن جرأة ذوي العليل والمراء، قراءات لم تظاهرها العربية ولا صحة السند ولا رسم المصحف، فتجرد قوم في المائة الأولى لضبط القراءات وحصر وجوهها وتبيين مذاهبها، وجعلوها علماً كما فعلوا يومئذ بالحديث والتفسير. واشتهر من هؤلاء ومن الطبقة التي وليتهم سبعة تنسب إليهم القراءات إلى اليوم وهم: عمرو بن العلاء (١٥٤) وعبد الله بن كثير (١٢٠) ونافع ابن نعيم (١٦٩) وعبد الله بن عامر (١١٨) وعاصم بن بهدلة الأسدي (١٢٨) وحزمة بن حبيب الزيات (١٥٦) وعلي بن حمزة الكسائي (١٨٩) وتلك هي سبع القراءات المتفق على صحتها إجمالاً وهناك ثلاث قراءات تليها في الصحة والتواتر وهي قراءة أبي جعفر المدني (١٣٢) وقراءة يعقوب بن إسحاق الحضرمي (١٨٥) وقراءة خلف بن هشام. وما سوى هذه العشر فشاذا.

جمعه وتدوينه:

نزل القرآن منجماً كما قلنا في ثلاث وعشرين سنة لوقائع موجبة وأحوال داعية. وأعلن ختامه في السنة العاشرة من الهجرة قبل وفاة الرسول بثلاثة أشهر، وبعد أن رتب آيه وتمت سوره؛ إلا أنها لم تجمع في مصحف واحد في حياته، وإنما توفي رسول الله والقرآن إما مسطور في العُسب واللخاف والأكتاف، وإما مذكور على ألسنة الصحابة ولما قتل من قرائه سبعون في غزوة اليمامة، فزع المسلمون وأشفق عمر أن يذهب القرآن بذهاب حُفَاطِه، فتقدم إلى أبي بكر في جمعه. فتردد الخليفة وقال: «كيف أفعل أمراً لم يفعله رسول الله ولم يعهد إلينا فيه عهداً!» فما زال عمر يداوره حتى أقنعه. وعهد بذلك إلى زيد بن ثابت أحد كتبة الوحي وصاحب العرضة الأخيرة على الرسول، فجمعه من السطور والصدور. وكتبه صحفاً أودعت عند أبي بكر وعند عمر من بعده. ثم كانت هذه الصحف في خلافة عثمان عند حَفْصَة بنت عمر زوج النبي. فلما اتسعت رقعة الدولة وانتشر القراء في الأرض اختلفوا في قراءاتهم اختلفهم في لهجاتهم، وفخر بعضهم على بعض بحسن قراءته وصدق روايته؛ فحشي عثمان أن يختلفوا في دلالاته كما اختلفوا في تلاوته، فأمر زيد بن ثابت وعبد الله بن الزبير وسعيد بن العاص وعبد الرحمن بن الحارث ابن هشام، فنسخوا تلك الصحف في مصحف واحد ورتبوا سوره على الطول والقصر، واقتصروا فيه على لغة قريش لنزول القرآن

بها، وأمر عثمان الناس أن يكتبوا مصاحف من هذا المصحف، وبعث في كل أفق بواحد منها، وكانت سبعة فأرسلها إلى مكة والشام واليمن والبحرين والبصرة والكوفة وحبس بالمدينة واحداً، وهو مصحفه المسمى بالإمام، ثم أمر بجمع ما عدا ذلك فأحرق.

قبس من نوره

قال الله تعالى: ﴿أَتَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبِرِّ وَتَنْسَوْنَ أَنْفُسَكُمْ؟ وَعَسَى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئاً وَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ. كَمْ مِنْ فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةً بِإِذْنِ اللَّهِ وَاللَّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ. قَوْلٌ مَعْرُوفٌ وَمَغْفِرَةٌ خَيْرٌ مِنْ صَدَقَةٍ يَتْبَعُهَا أذى. وَمِثْلَ الَّذِينَ يَنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِ اللَّهِ وَتَشِينًا مِنْ أَنْفُسِهِمْ كَمِثْلِ جَنَّةٍ بَرْبَوَةٍ أَصَابَهَا وَابِلٌ فَآتَتْ أُكُلَهَا ضَعْفَيْنِ فَإِن لَّمْ يُصِبْهَا وَابِلٌ فَطَلَّ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ. لَنْ تَنَالُوا الْبِرَّ حَتَّى تُنْفِقُوا مِمَّا تُحِبُّونَ. وَلَوْ كُنْتَ فَظًا غَلِيظَ الْقَلْبِ لَأَنَّفَضُوا مِنْ حَوْلِكَ. إِنْ يَنْصُرْكُمْ اللَّهُ فَلَا غَالِبَ لَكُمْ وَإِنْ يَخْذُلْكُمْ فَمَنْ ذَا الَّذِي يَنْصُرْكُمْ مِنْ بَعْدِهِ. مَنْ يَعْمَلْ سُوءًا يُجْزَ بِهِ وَلَا يَجِدْ لَهُ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا. قُلْ لَا يَسْتَوِي الْخَبِيثُ وَالطَّيِّبُ وَلَوْ أَعْجَبَكَ كَثْرَةُ الْخَبِيثِ. مَا عَلَى الْمُحْسِنِينَ مِنْ سَبِيلٍ. إِنْ اللَّهُ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ. قُلْ كُلُّ يَعْمَلْ عَلَى شَاكِلَتِهِ. لِلَّهِ الْأَمْرُ مِنْ قَبْلُ وَمِنْ بَعْدُ. مَا جَعَلَ اللَّهُ لِرَجُلٍ مِنْ قَلْبَيْنِ فِي جَوْفِهِ. وَلَا يَحِقُّ الْمَكْرَ السَّيِّئُ إِلَّا بِأَهْلِهِ إِنَّمَا يُغَيِّمُ عَلَى أَنْفُسِكُمْ؛ فَمَنْ نَكَتْ فَإِنَّمَا يَنْكُثُ عَلَى نَفْسِهِ، وَمَنْ أَوْفَى بِمَا عَاهَدَ عَلَيْهِ اللَّهُ فَمَسِيئَتِهِ أَجْرًا عَظِيمًا. وَلَا تَسْتَوِي الْحَسَنَةُ وَلَا السَّيِّئَةُ ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ. كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ. كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينَةٌ تَحْسِبُهُمْ جَمِيعًا وَقُلُوبُهُمْ شَتَّى كُلُّ حِزْبٍ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ. وَإِذَا رَأَيْتَهُمْ تُعْجِبُكَ أَجْسَامُهُمْ، وَإِنْ يَقُولُوا تَسْمَعُ لِقَوْلِهِمْ كَأَنَّهُمْ خَشْبٌ مُسْنَدَةٌ، يَحْسَبُونَ كُلَّ صَيْحَةٍ عَلَيْهِمْ. فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ، وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ. وَقَضَى رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا؛ إِمَّا يَبُلُغْنِ عِنْدَكَ الْكِبَرَ أَحَدُهُمَا أَوْ كِلَاهُمَا فَلَا تَقُلْ لَهُمَا أَفٌّ وَلَا تَنْهَرُهُمَا وَقُلْ لَهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا. وَأَخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ الذَّلِيلِ مِنَ الرَّحْمَةِ وَقُلْ رَبِّ ارْحَمُهُمَا كَمَا رَبَّيَانِي صَغِيرًا، رَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا فِي نُفُوسِكُمْ إِنْ تَكُونُوا صَالِحِينَ فَإِنَّهُ كَانَ لِلْأَوَّابِينَ غَفُورًا. وَآتِ ذَا الْقُرْبَى حَقَّهُ وَالْمَسْكِينِ وَابْنَ السَّبِيلِ وَلَا تُبَذِّرْ تَبْذِيرًا. إِنَّ الْمُبْدِرِينَ كَانُوا إِخْوَانَ الشَّيَاطِينِ وَكَانَ الشَّيْطَانُ لِرَبِّهِ كَفُورًا. وَإِمَّا تُعْرِضَنَّ عَنْهُمْ ابْتِغَاءَ رَحْمَةٍ مِنْ رَبِّكَ تَرْجُوهَا فَقُلْ لَهُمْ قَوْلًا مَيْسُورًا. وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَى عُنُقِكَ وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ الْبَسْطِ فَتَقْعُدَ مَلُومًا مَحْسُورًا. إِنْ رَبُّكَ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَقْدِرُ إِنَّهُ كَانَ بِعِبَادِهِ خَبِيرًا بَصِيرًا. وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُمْ خَشْيَةَ إِمْلَاقٍ نَحْنُ نَرْزُقُهُمْ

وَأَيَّاكُمْ، إِنَّ قَتْلَهُمْ كَانَ خِطْئًا كَبِيرًا. وَلَا تَقْرَبُوا الرِّزْنَ إِنَّهُ كَانَ فَاحِشَةً وَسَاءَ سَبِيلًا. وَلَا تَقْتُلُوا
النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ وَمَنْ قُتِلَ مَظْلُومًا فَقَدْ جَعَلْنَا لَوْلِيهِ سُلْطَانًا فَلَا يَسْرِفُ فِي
الْقَتْلِ إِنَّهُ كَانَ مَنْصُورًا. وَلَا تَقْرَبُوا مَالَ الْيَتِيمِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ حَتَّىٰ يَبْلُغَ أَشُدَّهُ، وَأَوْفُوا
بِالْعَهْدِ إِنَّ الْعَهْدَ كَانَ مَسْئُولًا. وَأَوْفُوا الْكَيْلَ إِذَا كِلْتُمْ وَرِنُوا بِالْقِسْطِ الْمُسْتَقِيمِ، ذَلِكَ
خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا. وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ، إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولَئِكَ
كَانَ عَنْهُ مَسْئُولًا، وَلَا تَمْشِ فِي الْأَرْضِ مَرَحًا إِنَّكَ لَنْ تَخْرِقَ الْأَرْضَ وَلَنْ تَبْلُغَ الْجِبَالَ طُولًا
كُلُّ ذَلِكَ كَانَ سَيِّئُهُ عِنْدَ رَبِّكَ مَكْرُوهًا ﴿١﴾.

٢ - الحديث

الحديث هو قول رسول الله أو حكاية فعله أو حديث الصحابة عنه. فهو في المنزلة
الإنسانية من كتاب الله فيما يتعلق بالدين والثقافة، وأغزر ينابيع التشريع في العبادات
والحقوق، وأقوم طريق يؤدي إلى فهم القرآن: يوضح إشكالاته، ويفصل إجماله، ويقيد
إطلاقه، ويخصص عمومه. والأحاديث التي صحت عن رسول الله قليلة، ولكنها موسومة
بضابح البيان والإلهام والعبقرية، لنشأتها في قريش، واسترضاعه في بني سعد وهي أفصح
القبائل العربية، وتضلعة من لغة القرآن وإطلاعه على لغة العرب، وقدرته الفطرية على
ابتكار الأساليب العالية، ووضع الألفاظ الجديدة لما استحدثت من المعاني الدينية والفقهية؛
ولكن قيمتها اللغوية ودلالاتها التاريخية لا تسموان إلى مكان القرآن في ذلك، لأن القرآن كان
يدونه عند نزوله كتبه الوحي، وكونه كلام الله جعل الاحتفاظ بنصه فرضاً على المسلمين،
﴿فمن بدله بعدما سمعه فإنما إثمه على الذين يبدلونه﴾^(١) أما الحديث فلم يدون إلا حوالي
منتصف القرن الثاني للهجرة، وكان قبل ذلك إنما يروى من الذاكرة والذاكرة كثيراً ما تخون،
فدله من تغيير الكلمات واختلاف الروايات أكثر مما نال الشعر الجاهلي. وزاد في ذلك أن
العلماء أجازوا رواية الحديث بالمعنى لاستحالة المحافظة على اللفظ في نقله مشافهة طوال
هذه السنين. وقامت الخصومات السياسية، ونجمت الفرق الدينية، فاستجاز أولوا الأهواء
الكذب على الرسول، فوضعوا ألوف الأحاديث تأييداً لدعوتهم وترجيحاً لنزعتهم. واستباح
قوم وضع الأحاديث الموافقة لمبادئ الدين وقواعد الفضيلة. وحجتهم أن الناس لا يأخذون
إلا بنص الكتاب أو ما ثور السنة؛ فملأوا الكتب بأحاديث الترغيب والترهيب وتعدوا ذلك إلى
وضعها في فضائل الأشخاص والمدن والسور لدعوة سياسية أو نزعة عصبية أو غاية دينية،
كأحاديث الموضوعية في فضل قريش على العرب، وفضل العرب على العجم، وتفضيل
بعض الصحابة على بعض، والمنقولة في بعض التفاسير في فضائل السور ترغيباً للناس في

(١) سورة البقرة، آية: ١٨١.

دراسة القرآن حين لهوا عنه بالفقه والسير. ومن طريق الوضع أدخلوا في الحديث طائفة كبيرة من الحكم المأثورة عن العرب، والآراء المنقولة عن العجم، فأثرت في الخطابة والجدل والشعر تأثيراً غير قليل.

كان عمر وبعض الصحابة لا يرون التوسع في رواية الحديث اتقاء لخطر الوضع وحرصاً على كتاب الله أن يجرح هذا الوضع إلى الاختلاف فيه أو الانشغال عنه. وقد قال عمر لقرطبة بن كعب ولمن حوله من الصحابة حين خرجوا إلى العراق: إنكم تأتون أهل قرية لهم دوي بالقرآن كدوي النحل، فلا تصدوهم بالأحاديث فتشغلوهم. جودوا القرآن وأقلوا الرواية عن رسول الله ﷺ. ونظن أن ذلك الخوف هو الذي صرفه أيضاً عن الإشارة بجمع الحديث كما أشار بجمع القرآن حتى لا يكون بجانب كتاب الله كتاب آخر يشاركه العناية؛ فقد روى الزهري عن عروه بن الزبير أن عمر أراد أن يكتب السنن واستشار أصحاب رسول الله ﷺ فأشار عليه عامتهم بذلك، فلبث شهراً يستخير الله في ذلك شاكاً فيه. ثم أصبح يوماً وقد عزم الله له فقال: إني كنت قد ذكرت لكم من كتابة السنن ما قد علمتم، ثم تذكرت فإذا ناس من أهل الكتاب من قبلكم قد كتبوا مع كتاب الله كتباً فأكبوا عليها وتركوا كتاب الله، وإني والله لا ألبس كتاب الله بشيء.

فكان من جرأ ذلك الخوف هذه الفوضى التي شوهت جمال الدين، وموهت حقائق التاريخ، وساعدت على نشر الفتنة، ولم يفتنوا إلى درئها إلا حين استفحل السر وانتشر الأمل وأصبح الطب لدائها مستحيلاً.

ليس من هم الأديب أن يعني عناية الفقيه واللغوي والنحوي والمؤرخ بما نال الحديث من اختلاف وتبديل، ولا بما نال المحدثين من جرح وتعديل، فإن الأدب إنما يعتبر الأحاديث صادقها وكاذبها مذهباً من مذاهب القول ومصدراً من مصادر المعنى لهما الأثر البالغ فيه. وليس من شك في أن الوضاعين كانوا يقلدون أسلوب الرسول ويتوخون استعمال كلماته واصطلاحاته، حتى لا تجد بين أكثر الأحاديث إلا فرق ما بين صدق النسبة إلى الرسول وكذبها. هذا من جهة الشكل، أما من جهة الموضوع فإن الأحاديث الصحيحة كانت طريق العلم والإرشاد، والأحاديث الموضوعية كانت طريق الرأي والاجتهاد؛ لأنها آراء فردية اجتهادية نسبها أصحابها إلى الرسول لتحل من قلوب الناس محل الثقة، فكانت طريقاً لبسط الفقه، وتهذيب الخلق، ونشر الثقافة، ونشوء الرأي المجتهد بجانب السنة الصحيحة في التشريع.

أسلوب الحديث:

الحديث كما يدل عليه اسمه لا يخرج عن هذا النوع العادي المؤلف الذي يملأ كل مجلس ويتناول كل موضوع. ومن مستلزماته عدم التحضير وقلة التفكير واختلافه باختلاف

المقامات والأحوال؛ ولكن أحاديث الرسول وإن كانت فيض الخاطر وعبو البديهة، يبدو عليها أثر الإلهام وسمّة العبقريّة وطابع البلاغة. وأسلوبها أقرب إلى أسلوب عصر النبوة منه إلى أسلوب القرآن، وإنما يمتاز بإشراق ديباجته واتساق عبارته وتساوق ألفاظه وفقره لأداء معنى واضح معيّن، ومطابقة مدلوله لمقتضى الحال، وملاءمة لغته للغة المخاطب. وأشد ما يكون ذلك ظهوراً حين يخاطب الوفود، فالرسول يستعمل الغريب، ويلتزم السجع، ويذكر ألفاظاً من مهجور اللغات تبعاً لما جرى على لسان الوافدين عليه: من ذلك حديثه مع طهفة بن أبي زهير النهدي، ومع لقيط بن عامر بن المنتفق، وذلك من حسن أدبه وسمو بلاغته وقوة تأثيره.

أما أكثر الأحاديث فإن عليها رواء الطبع وجلال النبوة ورونق الفصاحة. وللرسول قدرة عجيبة على التشبيه والتمثيل وإرسال الحكمة وإجادة الحوار، وتلك ميزة الرسل من قبل ولا سيما المسيح، لأن المرسلين في مقام المعلمين، وأنجح ما يكون في التعليم طريقة التمثيل والمحاوره، كقوله عليه السلام: «إِنَّ الْمُنْبِتَّ لَا أَرْضًا قَطَعَ وَلَا ظَهْرًا أَبْقَى. الْمُؤْمِنُ هَيِّنٌ لِّئِنْ كَالجَمَلِ الْأَنْفِ إِنْ قِيدَ انْقَادًا، وَإِنْ أُنِخَ عَلَى صَخْرَةٍ اسْتِنَاخَ. أَصْحَابِي كَالنَّجْمِ، بَأَيْهِمْ اقْتَدَيْتُمْ اهْتَدَيْتُمْ لَوْ تَوَكَّلْتُمْ عَلَى اللَّهِ حَتَّى تَوَكَّلْتُمْ لِرِزْقِكُمْ كَمَا يَرِزُقُ الطَّيْرَ: تَعْدُو خِمَاصًا وَتَرُوحُ. بَطَانَانَا مِثْلُ الْمُؤْمِنِ كَالنَّحْلَةِ، لَا يَأْكُلُ إِلَّا طَيِّبًا وَلَا يَطْعَمُ إِلَّا طَيِّبًا. إِنَّكُمْ لَنْ تَسْعُوا النَّاسَ بِأَمْوَالِكُمْ فَسَعَوْهُمْ بِأَخْلَاقِكُمْ الْمُؤْمِنُ آفٌ مَالِ الْوَفِّ. وَلَا خَيْرَ فِيمَنْ لَا يَأْلَفُ وَلَا يُؤْلَفُ. إِنْ أَحْبَبَكُمْ إِلَيَّ وَأَقْرَبَكُمْ مِنِّي مَجَالِسُ يَوْمِ الْقِيَامَةِ، أَحْسَنُكُمْ أَخْلَاقًا، الْمَوْطَأُونَ أَكْنَافًا، الَّذِينَ يَأْلَفُونَ وَيُؤْلَفُونَ. وَإِنْ أَبْغَضَكُمْ إِلَيَّ وَأَبْعَدَكُمْ مِنِّي مَجَالِسُ يَوْمِ الْقِيَامَةِ، الثَّرَاوُونَ الْمُتَشَدِّقُونَ الْمُتَفِيهِقُونَ. إِيَّاكُمْ وَخَضْرَاءَ الدَّمَنِ: الْمَرْأَةُ الْحَسَنَاءُ فِي الْمُنْبِتِ السَّوِّءِ. الْمَرْأَةُ كَالضَّلْعِ إِنْ رُمَتْ قَوَامَهَا كَسَرْتَهَا. النَّاسُ كُلُّهُمْ سَوَاسِيَةٌ كَأَسْنَانِ الْمَشْطِ. جَنَّةُ الرَّجُلِ دَارُهُ. إِنْ قَوْمًا رَكَبُوا سَفِينَةً فَاقْتَسَمُوا، فَصَارَ لِكُلِّ رَجُلٍ مِنْهُمْ مَوْضِعٌ، فَنَقَرَ رَجُلٌ مِنْهُمْ مَوْضِعَهُ بِفَأْسٍ، فَقَالُوا لَهُ مَا نَصْنَعُ؟ قَالَ هُوَ مَكَانِي أَصْنَعُ فِيهِ مَا أَشَاءُ. فَإِنْ أَخَذُوا عَلَى يَدِهِ نَجَا وَنَجَا، وَإِنْ تَرَكَهُ هَلَكَ وَهَكَوَا».

وأثر الأسلوب النبوي فاش في كلام الصحابة وخطبهم، وعلى الأخص في أسلوب من اشدّ خلاطهم به أو كثرت روايتهم عنه، كالإمام عليّ وأبي هريرة. فمن قول الإمام عليّ كرم الله وجهه: «ألا وإن الخطايا خيل شمس حُمل عليها أهلها وخلعت لُجُمها فتقحمت بهم في النار. وإن التقوى مطايا ذُلل حمل عليها أهلها وأعطوا أزمته فأوردتهم الجنة. حق وباطل، ولكل أهل. شغل من الجنة والنار أمامه. ساع سريع نجا، وطالب بطيء رجا، ومقصر في النار هوى اليمين والشمال مَضَلَّة، والطريق الوسطى هي الجادة».

وأما أبو هريرة فأكثر الناس حديثاً عن الرسول حتى بلغ ما رواه أربعة وسبعين وثلاثمائة وخمسة آلاف، أكثر لفظها وأسلوبها له وإن كانت جارية على أسلوب السنن. وقد ارتاب

بعض الصحابة في كثرة ما روى فقال: «إنكم تزعمون أن أبا هريرة يكسر الحديث عن رسول الله، والله الموعد. كنت رجلاً مسكيناً أحدم رسول الله على ملء بطني، وكان المهاجرون يشغلهم الصَّفْق في الأسواق، وكان الأنصار يشغلهم القيام على أموالهم، وكنت ألزم رسول الله فأشهد إذا غابوا، وأحفظ إذا نسوا!».

٣ - الشعر الجاهلي

وجد الثر في القرآن الكريم والحديث الشريف خطة جديدة ومنبعاً فياضاً فجعلهما دليلاً ومدده، ومضى في طريق الاستقلال والاكتمال والتطور. وانتقل الشعر إلى الإسلام مع العرب فلم يجد منه قبولاً حسناً ولا صدرأ رحيباً، مخافة من عصبية وجاهليته على وحدة المسلمين وألفة العرب، فظل يناق كالأعراب وهواه كله في البادية، ينتزع منها أخيلته وطرقه وصوره. وإذن لا نستطيع أن نفهم الشعر الإسلامي إلا بالرجوع إلى منبعه ومشعره، وقد ألممنا بالشعر الجاهلي إمامة تغنيا عن استئناف البحث فيه، فلننتقل إلى المصدر الرابع وهو:

٤ - الأدب الأجنبي

تقع جزيرة العرب بين مدينتين من أعظم مدينيات العالم وهما: مدينة الفرس في شرقها، ومدينة الرومان في غربها، وبينها وبينهما اختلاط من قديم الزمن خلّف بعض الآثار في اللغة والأدب من طريق التبادل المادي والمعنوي؛ ولكن هذا الاختلاط أصبح بعد أن فتحهما الإسلام امتزاجاً شديداً تداخلت به اللغات والأفكار والعقائد حتى صار مورداً فياضاً من موارد الأدب؛ فقد دخل القوم في دين الله، ودخل كثير من سباياهم في بيوت العرب، واضطروا إلى تعلم العربية والتكلم بها، ولكن هؤلاء وأمثالهم لم يغيروا إلا ألسنتهم، أما أخيلتهم وتصوراتهم وتعبيراتهم فقد ظلت على الجبلية الأولى: يفكرون بالفارسية أو الرومية، ويتكلمون أو يكتبون بالعربية، ولغاتهم مرسومة القواعد، وأدابهم واضحة المناهج، وحضاراتهم مشرقة الجوانب؛ فلم يكن بد من تأثر الآداب العربية بالآداب الأعجمية والعقلية الآرية، وأظهر ما يكون هذا التأثير في اللغة والتشريع والأخلاق والشعر والرسائل والقصص.

فاللغة قد اتسعت مادتها بما اقتبسته من الألفاظ الفارسية للتعبير عما لم يعرفه البدو في تدوين الدواوين، وتنظيم الحكومة، وسياسة الملك، ومقتضيات الحضارة، من أداة وطعام وزينة، ووضعت قواعدها على منهج النحو السرياني، وقام على ضبطها وبسطها الأعاجم. وقد عقد السيوطي في كتابه المزهرة فصلاً لما أخذه العرب من الفارسية والرومانية والسريانية والقبطية، ولكن اللغويين خلطوا في ذلك لجهلهم بهذه اللغات، فنسبوا إلى بعضها ما ليس منها. وغالى الفرس في رد أكثر المعربات إلى لغتهم عصبية أو جهالة، حتى زعموا أن

الرسول تكلم بالفارسية، ورووا في ذلك حديثين أحدهما قوله: إن جابراً صنع لكم سوراً، أي ضيافة والآخر قوله: العنب دو، والتمر يك: أي في تناولهما مثني وفرادي. وذلك في تحقيق العلماء لا أصل له. وقد ذكر الجاحظ في البيان والتبيين أن أهل المدينة عرفوا ألفاظاً من قوم من الفرس نزلوا فيهم، فيسمون البطيخ. خربز، والسميط أي المنتوف الصوف: رُوذَق. وإن أهل الكوفة يسمون المسحاة بال، والسوق: بازار، وذلك كله فارسي. وقد حكى أبو مهدي الأعرابي بعض ألفاظ أعجمية كانت فاشية لعهد فأنكرها، وذكر منها على سبيل المثال قوله:

يقولون لي شنبذ ولست مشنبذاً طوال الليالي ما أقام ثبير
ولا قائللاً زوداً ليعجل صاحبي ويشتان في قولي على كبير
ولا تاركاً لحني لأتبع لحنهم ولو دار صرف الدهر حيث يدور

والتشريع تأثر في تفاصيله بفقه الرومان، والأخلاق اعتمدت كثيراً على ما نقل من حكم اليونان عن طريق السريان، والشعر والنثر قد أخذ يتعاطاهما جماعة من الموالى، كزياد الأعجم، وأبي العباس الأعمى، وموسى شهوات، وإسماعيل بن يسار من الشعراء؛ وسالم ملى هشام؛ وتلميذه عبد الحميد بن يحيى، وصديقه ابن المقفع من الكتاب. وقد قال أبو هلال العسكري: «من تعلم البلاغة بلغة من اللغات ثم انتقل إلى لغة أخرى أمكنه فيها من صنعة الكلام ما أمكنه في الأولى. وكان عبد الحميد الكاتب قد استخرج أمثلة الكتابة التي رسمها من اللسان الفارسي فحوّلها إلى اللسان العربي».

وأما القصص، وهو هنا حكاية التفسير والأثر والخبر تعليماً وموعظة، فقد شابه شيء مما كانوا يسمونه العلم الأول. ويريدون به ما أخذوه من أخبار الأمم وأحوال الأنبياء، والنذر الأولى عمن أسلم من أهل الكتاب، كعبد الله بن سلام الذي أسلم عند هجرة النبي ﷺ إلى المدينة، وكعب الأحبار الذي أسلم في خلافة عمر؛ أو من الموالى كوهب بن منبه أحد الأبناء الذين عاشوا في اليمن فعرفوا أخبار اليهود، واتصلوا بالحيشة فعرفوا أخبار النصارى. وكان هو يعرف اليونانية. فاتسع بذلك علمه، وكان أول من صنّف قصص الأنبياء في الإسلام. ثم طاووس بن كيسان التابعي، وموسى بن سيار الأسواري. وقد قال الجاحظ في موسى هذا إنه من أعاجيب الدنيا: كانت فصاحته بالفارسية في وزن فصاحته بالعربية، وكان يجلس في مجلسه المشهور فيقعد العرب عن يمينه والفرس عن يساره، فيقرأ الآية من كتاب الله ويفسرهما للعرب بالعربية، ثم يحوّل وجهه إلى الفرس فيفسرها لهم بالفارسية، فلا يدرى بأي لسان هو آيين.

وتأثير أدب الموالى في أدب العرب أكبر وأظهر من تأثير أدب اليونان والرومان فيه؛ لأن اليونان والرومان لم يدخلوا في الدين ولا في العربية حتى يكون تأثيرهم مباشراً؛ بل ظلوا

مستقلين غير متصلين إلا بمقدار الصّلات الاقتصادية. والعرب لقرب عهدهم بالبداوة وجهلهم باللغات، واشتغالهم بالفتوح والخصومات، وتعصبهم لأديبهم لم يفكروا في نقل شىء من أدب هؤلاء وأولئك. وأما الفرس فقد انتقلوا إلى العرب ذاتاً ومعنى ووطناً، فاندمجوا فيهم وامتزجوا بهم وأثروا بأنفسهم في دينهم ولغتهم من غير طلب ولا وساطة. وانصرف العرب إلى سياسة المُلْك وقيادة الجند وأقصوا عنهما الموالي، فعكف هؤلاء على تحصيل العلوم الشرعية واكتساب الفنون الأدبية، فكان منهم رواة الحديث، وحملة الفقه، وكتبة الدواوين، وقالة الشعر، وعلماء النحو واللغة، وبذلك اتصلوا بسببنا، وفنى أدبهم في أديبنا، كما تفنى شأبيب المطر في عباب المحيط.

أنواع الأدب الإسلامي الشعر

الشعر في عهد الرسول:

ظهر الإسلام وقد تحكّم في حياة العرب جاهلية قاسية وعقلية جافة وعصبية مفرّقة فكان الشعر مظهر هذه الصفات وباعثها. فلما أعلن الرسول الحرب على هذه الأخلاق تمهيداً لألفة القلوب ووحدة العرب، كان من الطبيعي أن يُنغض الإسلام رأسه إليه، وألا يشجع الناس عليه؛ ففي القرآن: ﴿وَالشُّعْرَاءُ يَتَّبِعُهُمُ الْغَاوُونَ﴾^(١) ﴿وَمَا عَلَّمْنَاهُ الشُّعْرَ وَمَا يَنْبَغِي لَهُ﴾^(٢)، وفي الحديث: «لأن يمتلىء جوف أحدكم قيحا حتى يريه خير له من أن يمتلىء فمه شعراً»^(٣)، فازور جانب المسلمين عن قرض الشعر وروايته، على علمهم بأن الدين لم يكرهه على إطلاقه، وإنما كره منه ذلك النوع الذي يمزق الشمل ويثير دفتان القلوب. ثم شغل الإسلام العرب جميعاً بالدعوة العظمى: فمن مؤيد ومن معارض. واشتدت الخصومة بين الرسول وبين قريش، فجردوا عليه الأسيئة والألسنة، ولكن شعراء العرب وقفوا موقف الحياد والتربص و ينتظرون نتيجة المعركة بين التوحيد والوثنية، وبين الديمقراطية والأرستقراطية، وبين محمد وقريش، فلم يغامر في الخصومة إلا الشعراء القرشيون، وقد كانوا قليلاً قبل الإسلام لشواغل الحضارة والتجارة، فصاروا كثيراً بعده لدواعي النزاع والمعارضة. بدأ هذه الحملة منهم عبد الله بن الزبعرى وعمرو بن العاص

(١) سورة: الشعراء، الآية: ٢٢٤.

(٢) سورة: يس، الآية: ٦٩.

(٣) أخرجه أبو داود في كتاب: الأدب، باب: ما جاء في الشعر الحديث (الحديث ٥٠٠٩)، وأخرجه

ابن ماجة في كتاب: الأدب، باب: ما يكره من الشعر (الحديث ٣٧٥٩).

وأبوسفيان، فأذوا الرسول وأتباعه بقوارص الهجاء، فهاج ذلك من شاعرية المسلمين وودوا لويأذن لهم الرسول بمساجلتهم؛ فما هو إلا أن قال لهم: «ماذا يمنع الذين نصرُوا الله ورسوله بأسلحتهم أن ينصروه بالسنتهم؟» حتى نهض للقرشيين نفر من الصحابة، فيهم حسان بن ثابت وكعب بن مالك وعبد الله بن رواحة، وشبوا حرباً كلامية جاهلية لم يهاجم المهاجمون فيها بفضائل الوثنية، ولم يدافع المدافعون بفضائل الإسلام، حتى نقول إن الشعر قد خطا في مذاهب الفن خطوة جديدة، بل كانوا يتهاجون على النمط المعروف من الفخر بالأنساب والتبجح بالسؤدد. يدل على ذلك قول الرسول لحسان: «أذهب إلى أبي بكر فهو أعلم بمثالب القوم»، وقوله: «كيف تهجو قريشاً وأنا منها؟ فقال: «أسلك كما أسل الشعرة من العجين».

فليس من شك في أن الشعر ظل على عهد الرسول جاهلياً. فلما خضعت قريش وسائر العرب للدين الجديد بعد لأي، خرست الألسنة اللاذعة وفر الشعر الجاهلي ثانية إلى البادية. وانصرف المسلمون إلى حفظ القرآن ورواية الحديث وجهاد الشرك، فحُفَّت صوت الشعر لقلّة الدواعي إليه، فما كان يظهر إلا الحين بعد الحين في صادق المدح والثناء. وتساهل الرسول في سماعه حتى أتاب عليه، وحتى قال فيه. «إن من البيان لسحراً وإن من الشعر لحكمة».

الشعر في عهد الراشدين:

تلك كانت حالة الشعر في عهد النبوة، وأما حاله بعدها فأقل شأنًا وأحط مكانة لذهاب المعارضة ولشدة الخلفاء في تأديب الشعراء، وانصراف همم العرب إلى الفتح. ولكن الدين قد بدأ يفعل في النفوس، ومظاهر الحضارة قد أخذت تؤثر في الأذهان، فظهر أثر ذلك ضئيلاً في شعر المخضرمين ككعب بن زهير والحطيئة ومَعْن بن أوس والنابغة الجعدي، ولكنه أثر لا يتعدى بعض الألفاظ الإسلامية كالمعروف والمنكر والصلاة والزكاة والجنة والنار والمهاجرين والأنصار. ولذلك نرى من المبالغة جعل المخضرمين طبقة ممتازة؛ فإن شعرهم استمرار للمذهب الجاهلي لم يتأثر بالإسلام إلا تأثيراً عرضياً كضعف الأسلوب في شعر حسان، أو قلة الإنتاج في قريحة لبيد، أو كثرتة في الحطيئة والنابغة الجعدي مثلاً، والأشبه بالحق أن نقرر ما أشرنا إليه من قبل، وهو أن الشعر العربي ظل في الجاهلية والإسلام واحداً في مظهره وجوهره ونوعه حتى أواخر عهد بني أمية. والتأثير الذي ناله من الموالى والسياسة والحضارة والدين لم يعطفه إلى طرق جديدة وإنما وسع في معانيه ومناحيه، فقوى بعض أغراضه كالهجاء، وميز بعضاً آخر كالغزل. وهل يمكن التجديد في الشعر وجل الشعراء إنما يأتون من البادية، والخلفاء يتعصبون البادية، والرواة والأدباء واللغويون يطلبون اللغة والشعر في البادية؟ فضلاً عن أن العرب بطبيعتهم يميلون إلى التقليد ويجلون القديم المأثور من

سؤدد وخلق وأدب: فليس من سييلنا أن نتكلف البحث العقيم في القرن الأول عن مذهب شعري جديد يصح أن يكون أساساً لأدب عربي جديد، فإن مذهب عمر بن أبي ربيعة في الغزل لا يختلف عن مذهب امرئ القيس إلا في المعاني الحضرية؛ ومذهب جرير والفرزدق في الهجاء لا يختلف عن مذهب الحطيئة والشماخ إلا في المعاني السياسية. فلنقصر الجهد إذن على تحليل نهضة الشعر في العراق والحجاز على عهد بني أمية وبيان خطرهما وأثرهما في الإنتاج العقلي للعرب.

كانت القحطانية والعدنانية، والعلوية والبكرية، والهاشمية والأموية، والعروبة والشعوبية، تضطرم في نفوس المسلمين اضطرام البركان قبيل أن يثور. ولكنها كانت تضعف حيناً وتشتد حيناً تبعاً لسياسة القائم بالأمر ونظام حكمه؛ فالقبائل كانت تنزل منازلها في البلاد على هذه الفكرة، والبصرة والكوفة تخططان على هذه الفكرة، والخلاف ينجم في فارس والشام والعراق والأندلس من هذه الفكرة، وكلها تدور على الزعامة والإمامة، فمن كان سيداً في الجاهلية يريد أن يكون سيداً في الإسلام! كأن العرب لم يفهموا من الدين الجديد إلا أنه طريق إلى السلطان وسبيل إلى الغلبة والثروة والحكم ليس غير. ولعلك تذكر أن بعضاً من شيوخ القبائل كقيس بن عاصم والأحنف بن قيس كانوا يعرضون على الرسول أن يدخلوا في دين الله لا على أنه الدين الحق، بل ليكون لهم الأمر من بعده!

ظلت هذه الروح العصبية مكظومة في عهد الشيخين لأخذهما الأمور بالحزم والعدل، ولانصراف العرب إلى المغنم عن طريق الجهاد والفتح. فلما وُلِّي الأمر عثمان وهنت اليد المصرفة فسندتها يد أخرى، وتشتت الرأي فلم يصدر عن الخليفة وحده، وحكم آل الناس بعصبيتهم الأموية لا بقوميتهم العربية. وكان المسلمون يومئذ قد أفاءت عليهم الفتوح والمغانم الثراء إلى حد البطر؛ فاستيقظت الفتنة وقامت الثورة وانتهت بمقتل عثمان، وتجددت الخصومة على أثر ذلك بين عليٍّ ومعاوية. وقتل الإمام فخرج الأمر وانشقت العصا. وانصرف العرب عن جهاد العدو إلى جهاد أنفسهم باللسان والسيف. وتفرقوا أحزاباً وشيعاً بعضها للدين وبعضها للدنيا. ففي الشام حزب يشايح بني أمية، يريض لهم الأمر ويمكنهم في الملك. وفي الحجاز حزب يناصر ابن الزبير، يؤيده في دعواه وينصره في دعوته. وفي العراق حزب يشايح أهل البيت ويطلب لهم بحقهم في الخلافة. وهناك حزب ديمقراطي ينكر الأحزاب ويكفر الزعماء ويقول بالشورى في الخلافة. وفي هذه الأحزاب الأربعة توزعت أهواء المسلمين وآراؤهم إلا طائفة قليلة لزمّت الحياد وأرجأت الحكم بين المختلفين إلى قضاء الله يوم الدين وهم المرجئة. واتصلت بين الأحزاب الخصومة، وأعنف فيها الخصوم؛ ولكن معاوية بعد أن تم له الأمر كان يصانع معارضيه بالدهاء والعطاء والإغضاء والحزم، حتى استوثق له الأمر طيلة حياته إلا من جهة الخوارج. فلما مات أفاق

خصومه من خَدَر سياسته فزعزعوا عرشه؛ حتى إذا وَهِيَ أدرکه مروان وبنوه فسندوه واقتعدوه. وفي زمن عبد الملك اشتدت المعارضة واستعرت الحروب، وكثر المطالبون بالخلافة، وانبسط سلطان العرب، وزخرت موارد الفيء، واكتمل شباب الجيل الذي نشأ في الإسلام، واغتنى بثمر الفتوح، واستمتع بجمال الحضارة، واختلط بأنماط شتى من الناس، وساهم بيده ولسانه في هذه الفتن، فبلغ الأدب العربي غاية ما قدر له أن يبلغ. فهل يمكن أن يظل الشعر بنجوة عن هذه الحياة الصاخبة، والعصية الغالبة، والأحزاب المتحاربة، والأهواء المتضاربة. والشعر العربي ربيب الخصومة والجدل، تبعته الحزبية ويقويه الهراش وتوحيه شياطين الفرقة؟ الواقع أنه كان وقود هذه الفتن ولسان هذه الأحزاب، يصطنعونه كما نصطنع نحن الصحف اليوم، فيناضل عن زعمائه، ويدافع عن آرائه، ويصطنع بصبغة العقيدة التي يدعو إليها وينافح عنها. وإذا علمت أن العرب جميعاً ساهموا في هذه الخصومات، وأن أكثرهم يقول الشعر وخصوصاً في هذه الأزمات، وأن الأمويين استمالوا بالمال هوى الشعراء، وأوقدوا بينهم نار التنافس والهجاء، وأن الشعر أصبح صناعة متميزة يعيش عليها بعض الناس، أدركت سبب وفرة الشعر وكثرة الشعراء في عصر عبد الملك، إذ بلغ عدد الفحول المائة. وليس من شك في أن الشعر وإن حافظ على طريقتة وطبيعته قد تأثر بهذه الحياة الجديدة تأثراً ظاهراً في معانيه وأغراضه، ولكن هذه الحياة لم تكن كلها نزاعاً سياسياً ولا جدلاً دينياً حتى يقف تأثره عند هذا الحد، وإنما كان لها مظاهر أخرى يحسن أن نشير إليها قبل أن ندل على آثارها في الشعر.

نظرة عامة

في العراق:

كان من الطبيعي أن تختلف مظاهر هذه الحياة في العواصم العربية لاختلاف الأحوال السياسية والاجتماعية فيها. فالعراق كان منذ القدم منتجج الخواطر العربية لخطبه ونمائه، ووفرة ظله ومائه. وقد لاذ العرب قبل الإسلام بأطرافه وأريافه واللسان واليد فيه للفرس فأنشأوا إمامه المناذرة. فلما فتحوه في عهد عمر نزحوا إليه وأنشأوا على حدود البادية البصرة والكوفة. وكان في العراق ميراث وفر من العلم والأدب والدين خلفته الأمم الغابرة، ولم يؤت العراق ما أوتيت مصر من قوة الهضم والتمثيل حتى يحيل سكانه إلى جنسية واحدة وعقلية واحدة، فانطبعت الأهواء فيه على الفرقة، والنفوس على التنافر. وأتى إليه العرب بالعصية اليمينية والنزارية، ووقعت فيه الأحداث الإسلامية الجلى كواقعة الجمل ومصرع الأئمة والقادة، وما نجم عن ذلك من قيام الشيعة والخوارج، واشتداد المعارضة لبني أمية، واستحكام الخلاف بين البصريين والكوفيين في السياسة والدين والعلم، فكانت البصرة عثمانية، والكوفة بعد استقرار الإمام علي بها علوية، والجزيرة الفراتية إما نصرانية وإما

خارجية، لأنها مسكن ربيعة وهم كما قال الأصمعي رأس كل فتنة. ومن ربيعة بنو تغلب الذين قال فيهم الإمام علي: «يا خنازير العرب! والله لئن صار هذا الأمر إليّ لأضعن عليكم الجزية». فكان الشعر العراقي صورة لهذه الحياة الثائرة المتنافرة، فهو قوي عنيف يكثر فيه الهجاء والفخر، وتتلون فيه العصبية القبليّة ألواناً شتى من التحزب للمكان والعقيدة والجنس، وتتغلب فيه النزعات الجاهلية على التعاليم الإسلامية، وتغذيه نفحات بدوية وصلات أموية، فيزدهر وينتشر حتى يشغل كل لسان ويحتل كل مكان ويعبر عن كل مبدأ.

في الحجاز:

والحجاز منبع الإسلام كان أشبه بينابيع النهر: يفيض منه الماء الصافي في سكون ورفق، حتى إذا بعد مجراه اعترضته الشلالات وتقسّمته التيارات، فتكدر نميزه واشتد هديره، وتوزعته الجداول والأقنية، فبعضه في سباح الأرض، وبعضه في الرياض، فروى بعضاً وأغرق بعضاً انتقلت منه الخلافة والمعارضة والعلم إلى العراق والشام وبقي هو كما كان وكما هو الآن يقبل المال والمعونة من كل قطر. واقتضت سياسة الأمويين أن يعتقلوا فيه شباب الهاشميين فلا يتركونه إلا بإذن، وسلطوا عليهم الترف، وشغلوهم بالمال عن الملك، وخلوا بينهم وبين الفراغ، وقد ورثوا مع ذلك عن آبائهم المجاهدين مغانم الفتح من أموال ورقيق، وفي أهل الحجاز ملاحه ظرف ووداعة نفس ولطافة حس وفصاحة لسان ومحبة لهو، فتبسطوا على النعيم، وعكفوا على اللذة، وقطعوا أيامهم بالمنادرة والمنادمة، وذهبوا في حياة المجون كل مذهب. ووصل الحج بينهم وبين الحسان والقيان، واستهوت هذه الحال المغنين فوفدوا إلى مكة والمدينة من أقطار الدولة حتى اجتمع منهم في وقت واحد كما يقول أبو الفرج الأصبهاني «ابن سُرَيْج، والغريص، ومَعْبَدٌ وحنين، وابن محرز، وجميلة، وهيبت، وطُويس، والدلال، وبرد الفؤاد، ونومة الضحى، ورحمة، وهبة الله، ومالك، وابن عائشة، وابن طنبورة، وعزة الميلاء وَحَبَابَة، وسلامة، وبلبله، ولذة العيش، وسعيدة، والزرقاء، وابن مسحح» وحتى غلب الغناء على أعمال الناس وميوله، فقد حدث الإمام مالك عن نفسه قال: «نشأت وأنا غلام أتبع المغنين وأخذ عنهم، فقالت لي أمي: يا بُنَيَّ إن المغني إذا كان قبيح الوجه لا يُلتفت إلى غنائه، فدع الغناء وأطلب الفقه فإنه لا يضر معه قبح الوجه. فتركت المغنين وأتبعت الفقهاء فبلغ الله بي عز وجل ما ترى». من ذلك شاع الحب في مدن الحجاز ورقّت عواطف بنيّه، فسلكوا بالشعر مسالك الغزل الحضري الرقيق الصادق، حتى كاد هذا الفن لاقتنانهم فيه يتبدى بهم وينتهي إليهم.

في الشام:

وأما الشام فكان بنجوة من الثورات النفسية والأزمات السياسية لخضوعه لبني أمية

وإخلاصه لهم وانصرافه إلى تأييدهم، فلا هو مضطرب العواطف كالحجاز، ولا هو مضطرب الأهواء كالعراق، وقد أمن الخلفاء جانبه فتركوه لشأنه دون أن يثيروا عصبته لخلاف، أو يهيجوا طماعيته لمغرم، فبقي الشعر من جراء ذلك راكداً في نفوس أهله لا يبعثه باعث، ولا يتوفر على دراسته وروايته باحث. وأكثر ما كان فيه من ذلك إنما كان يفد إليه من العراق والحجاز مع الشعراء الذين يجذبهم سخاء القصر أو دهاؤه، والأدباء الذين يطلبهم الخلفاء من البصرة كلما أعزلتهم مسألة في اللغة والنحو والأدب.

خصائص الشعر في العراق:

لعل الشعر العراقي الإسلامي أصدق ما يصور حياة البادية وأصح ما يعبر عن نفسية العرب؛ فإنه - وإن كان كما قلنا استمراراً للشعر الجاهلي يصدر عن دوافعه وينبع من منابعه - أنقى جملة وأبين علة وأصلح نسبة، لقربه من عصر التدوين واتصاله بأسباب السياسة وأحداث التاريخ: وهو مظهر تلك الحياة المدنية الأولية التي هيأها الإسلام للعرب لأول مرة، فجعل من الأشتات وحدة ظاهرها الجماعة والألفة، وباطنها العداوة والفرقة؛ فهو مهاجرة بين الأفراد، ومساجلة بين الأحزاب، ومفاخرة بين القبائل، ومدح للزعماء والخلفاء. وهذه الموضوعات بطبيعتها تقتضي اللفظ الجزل والأسلوب الرصين والعروض الطويل والصور البدوية، وتعتمد في الهجاء على مثالب الأبناء من جبن وبخل وقلة وذلة، وفي المدح والفخر على ذكر أيامهم الدامية الماضية وما ظفر فيها أسلافهم من السب والسلب. فالهجاء في هذا العهد بأنواعه الخاصة والعامة يكاد مظهره العراق، لتكالب القبائل المتعادية عليه، وظهور المذاهب المتباينة فيه، وغلبة البداوة والأنفة والبط على أهله؛ فشعراؤه يتندثون به ويفتنون فيه ويعيشون عليه، وهو ينتحل الأسباب المختلفة، ويرتدي الأثواب المتعددة، فيكون شخصياً وقبلياً ووطنياً ودينيّاً وسياسياً، ولكنه في الواقع إنما يصدر عن باعث واحد هو العصبية الموروثة والأحقاد القديمة.

وقد ينبت المرعى دَمِنَ الشرى وتبقى حزازات النفوس كما هيا

الأخطل:

فقاتل هذا البيت غياث بن غوث الأخطل صوت الجزيرة ولسان التغلبيّة، وأديب النصرانية وشاعر الأموية، كان أول ما غرزم به الشعر الهجاء. هجا امرأة أبيه وهو صغير، وهجا كعب بن جعيل شاعر تغلب فأهمله وهو يافع، وعلق به لقب الأخطل منذ شبّ لسفاهته، ثم مضى يقرض الشعر فيما يشجر من الخصومة بينه وبين الناس، أو بين قبيلته وبين القبائل، حتى كان بين يزيد بن معاوية وهو وليّ العهد وبين عبد الرحمن بن حسان الأنصاري تقاؤل وجدل، فطلب من كعب بن جعيل أن يهجو الأنصار، فتخرج أن يذمّ قوماً آووا رسول الله ونصروه، وقال له: أدلك على الشاعر الفاجر الماهر (يريد الأخطل) فهجا

الأخطل الأنصار بالفلاحة واللؤم والخمر، وفضل عليهم قريشاً في قصيدته الرائية، وكاد يُشفى من ذلك على الخطر لو لا عون يريده. وبالغ الأمويون في إثارة وإكرامه، وأمعن هو في النفع عليهم، فناضل الزبيريين بعد الأنصار، ووقف للقبائل القيسية فهتك عنها حجاب الشرف قبيلة بقصيدته التي مطلعها:

ألا يا أسلمي يا هندُ هندُ بني بكر وإن كان حَيَّانا عدى آخر الدهر

لمناصبها الأمويين العداء من جهة، ولأقتحامها الجزيرة على قومه من جهة أخرى. ثم ختم حياته بممالة الفرزدق ومهاجاة جرير. والأخطل وإن كان شديد التمسك بنصرانيته على وثيق صلاته بالخلفاء، لم يشذ عن طبيعة العرب في التدين؛ فقد قال الأب لامنس اليسوعي في فصل كتبه عنه: «إن أثر النصرانية في دين الأخطل ضئيل، ونصرانيته سطحية ككل العقائد الدينية عند البدو»، فهو يُدمن الخمر في حمى الدين، ويكثر الهجاء في حمى الخليفة، ويهاجم القبائل في حمى تغلب؛ ولكن هجاءه كان عفيف اللفظ لا يركب فيه متن الشطط ولا يتجاوز به حدود الخلق.

الفرزدق:

وأبو فراس همام بن غالب الفرزدق الدارمي ثم التميمي نشأ كذلك بالبصرة على قول الهجاء مع شرف أسرته وغنى قبيلته وعزة نفسه؛ فكان يهجو بني قومه لحدة طبعه وشراسة خلقه، فيشكونه إلى أبيه فيضربه. ثم لجح في هجاء الناس حتى استعدوا عليه زياداً والي العراق لمعاوية، فطلبه ففر منه في مدن العراق وقبائله ثم لجأ إلى المدينة أخيراً واستجار بوالها سعيد بن العاص من زياد فأجاره. فلما مات زياد عاد الشاعر إلى وطنه فشارك فيما وقع فيه من حروب وفتن بعد موت معاوية ويزيد، حتى مُني بمهاجاة جرير فشغلت فكره وملاّت عمره وصقلت شعره. وظلت هذه المهاجاة أربعين سنة ونيفاً كان منها للناس مشغلة. وللسواس مهزلة. وللأدب العربي ثروة ضخمة من الشعر لا تخلو على سفاهتها وبداءتها من جمال وحكمة.

جرير:

وكان جرير بن عطية الخطفي التميمي قد قال الشعر كصاحبيه في الحداثة الباكرة، وقاله مثلهما في الهجاء، ولكنه بدأ بالرجز على نحو ما يكون من الرعاة وهو منهم. وكان حمول عشيرته وضعة أسرته وفقر أبيه وحده خلقه من العوامل التي ساعدت الطبع على نبوغه في الشعر وتفوقه في الهجاء وكان أول من نازله وأفحمه غسان السليطي حين هجا قومه، فاستغاث السليطي بالبعيث فأغاثه وهجا جريراً، فنقض جرير قوله بالهجاء اللاذع، فناضل عنه الفرزدق لموجدة في نفسه على جرير وتهاجى الشاعران التميميان من أجل ذلك. وفضل

الأخطل والفرزدق على جرير إما لدفاعه عن قيس، وإما لرشوة محمد بن عمير إياه، فهجاه جرير. ثم نبه الهجاء من كل مكان -حتى نصب له من الأقران ثمانون شاعراً ظهر عليهم جميعاً إلا الفرزدق والأخطل فإنهما ثبتا له ونازعا العلبة وأنشعب الناس في أمر جرير والفرزدق شعبتين تناصر كل منهما أحد الشعارين. وكان بين الفرزدقيين والجريريين ما بين العلويين والأمويين؛ يطلب كل منهم الغلبة لصاحبه بالدعاية والنكايه والرغبة والرهبه والحلف، يقوم الأولون بالمربد والآخرين بمقبرة بني حصن، وقد وقف الشعاران كل بين أتباعه وأشياعه ينشدهم شعره وهم يكتبونه، والرواة ينشرونه؛ والأدباء والأمراء يتناولون ما يروى بالموازنة والنقد والحكم، والأنصارُ يحاولون رشوة الشعراء واستمالة العلماء ليحكموا لصاحبهم على خصمه؛ فقد روى صاحب الأغاني أن أحدهم تبرع بأربعة آلاف درهم وبفرس لمن يفضل الفرزدق على جرير. وليس أدل على اهتمام الناس بأمرهما واختلافهم في الحكم على شعرهما من أن يتهاذن الجيشان المتقاتلان ساعة ليحكم أحد الخوارج الأدباء بين رجلين من رجال المهلب تنازعا في أمر جرير والفرزدق. فقد ذكر ابن سلام أن رجلين تنازعا في عسكر المهلب في جرير والفرزدق وهو بإزاء الخوارج، فصارا إليه فقال لا أقول فيهما شيئاً، وكره أن يعرض نفسه لشرهما، ولكن أدلكما على من يهون عليه سخطهما: عبيد بن هلال، وهو يومئذ في عسكر قطرى بن الفجاءة، فأتيا فوقفا حيال المعسكر فدعواه فخرج يجر رمحه، وظن أنه دُعِيَ إلى المبارزة، فقالا له: الفرزدق أشعر أم جرير؟ فقال: عليكما وعليهما لعنة الله! فقالا: نحب أن نخبرنا ثم نصير إلى ما تريد. فقال من يقول:

وطوى القيادُ مع الطراد بطونها طي التجار بحضرموت برودا

قالا: جرير. قال: هو أشعرهما.

وهناك طائفة أخرى من شعراء العراق كعبيد الراعي وأبي النجم العجلي والراجز اتخذوا من الشعر ظُفراً وناباً مزقوا بهما الأعراض وأشاعوا هجر القول في الناس، ولكن أحدهم لم يبلغ من سطوة الشعر ونباهة الذكر ما بلغ جرير والفرزدق والأخطل، لأنهم كما قال أبو عبيدة: «أعطوا حظاً من الشعر لم يعطه أحد في الإسلام: مدحوا قوماً فرغعوهم، وذموا قوماً فوضعوهم، وهجاهم قوم فردوا عليهم فأنهضوهم، وهجاهم آخرون فرغبوا بأنفسهم عن جوابهم فأسقطوهم».

مذهب الأخطل والفرزدق وجرير في الهجاء:

مذهبهم في الهجاء هو المذهب المتبع والطرز الغالب. على أنهم يتفاوتون فيه تفاوتهم في الطبقة والبيئة والطبع.

فالأخطل سيد في قومه، كريم في نسبه، نبيل في نفسه، يعاقر الخمر ويجالس الملوك ويحترم الدين ويحتمل في سبيله ضرب الأسقف وأذى السجن وإن كان لا يتعبد ولا يتزهّد. ومن أجل ذلك كانت لغته في الهجاء كما ذكرنا من قبل لغة الخاصة، لا يسف إلى القبيح ولا يستعين بالمخازي، وإنما يهاجم القرن في صفات الرجولة فينفي عنه الكرم والبأس والمجد والصدق كقول في تيم:

وكننت إذا لقيت عبيد تيم وتيما قلت أيهما العبيد!
لثيم العالمين يسود تيمًا وسيدهم وإن كرهوا مسود

وكقوله في كليب بن يربوع:

بش الصحاب وبش الشرب شربهم إذا جرى فيهم المزاء والسّكر
قوم تناهت إليهم كل مخزية وكل فاحشة سبّت بها مضر
الأكلون خبيث الزاد وحدهم والسائلون بظهر الغيب ما الخبر
وأقسم المجد حقاً لا يحالفهم حتى يحالف بطن الراحة الشّعر

ولعل أفحش هجائه قوله في قوم جرير:

قوم إذا استببح الضيفان كلبهم قالوا لأهمم بُولي على النار
فتمنع البول شحاً أن تجود به ولا تجود به إلا بمقدار
والخبز كالعنبر الهندي عندهم والقمح خمسون أردباً بدينار

فترى أنه حتى في إقذاعه وإيجاعه لا يتدلى إلى ذكر المثالب الخاصة والمعائب الفردية، وإنما يهاجم قبيلة الخصم كلها فيقايِس بينها وبين قبيلته في السمو إلى المعالي والسبق إلى الغايات، وفي ذلك يحد بلاغه ومدده، فلا يضطر اضطرار جرير إلى ذكر الصغائر التماساً للغلبة الدنيئة من أقرب طريق. انظر إلى قوله لجرير:

يا ابن المراغة إن عمي اللذا قتلا الملوك وفككا الأغلالا
وأخوهم السفاح ظمأ خيله حتى وردن جبي الكلاب نهالا
فانعق بضأنك يا جرير فإنما منتك نفسك في الخلاء ضلالا
منتك نفسك أن تكون كدارم أو أن توازي حاجباً وعقالا

وإلى قوله له:

ولقد شدت على المراغة سرجها حتى نزعنت وأنت غير مجيد
وعصرت نطفتها لتدرك دارماً هيهات من أمل عليك بعيد
وإذا تعاضمت الأمور لدارم طأطأت رأسك عن قبائل صيد
وإذا عددت بيوت قومك لم تجد بيتاً كبيت عطارد ولبيد

فإذا نظرت إلى ذلك وجدت أن هجاءه أقرب ما يكون إلى المنافرة والفخر. ومن الواضح أن هذا الهجاء العفيف المترفع وإن أمض لا يجري مع هجاء جرير في ميدان، ولا يستوي وإياه عند العامة في ميزان، فكيف إذا اجتمع إلى ذلك خمدو الشيخوخة في الأخطل وحدة الشبية في جرير؟ إن جريراً نفسه قد علل وناء خصمه عنه في آخر الشوط بكبر سنه، فقد قال: «أدركته وله ناب واحد، ولو أدركته وله نابان لأكلني». وقال في قصيدته النونية التي هجا بها الأخطل على أثر تفضيله الفرزدق عليه:

جَارِيَتْ مُطَّلَعِ الرَّهَانِ بِنَا بِهٍ رَوْقٌ شَبِيبَتُهُ وَعَمْرُكَ فَا نَ

وإذا استثنينا هجاء الأخطل لجرير وجدنا أشهر أهاجيه إنما قالها في أغراض قومية أو سياسية. ومن تلك الأهاجي المأثورة قصيدتان تلخصان مذهباً وتصوران فنه: الأولى في هجاء القبائل القيسية ومطلعها:

أَلَا يَا أَسْلَمِي يَا هِنْدَ هِنْدَ بَنِي بَكْرٍ وَإِنْ كَانَ حَيَّانَا عِدَى آخِرِ الدَّهْرِ

وَالْآخِرَى فِي مَدْحِ عَبْدِ الْمَلِكِ بْنِ مَرْوَانَ وَذِمَّ خَصْمُوهُ وَمَطْلَعُهَا:

خَفَ الْقَطِطِينَ فِرَاحُوا مِنْكَ أَوْ بَكَرُوا وَأَزَعَجْتَهُمْ نَوَى فِي صَرْفِهَا غَيْرُ

ومنها:

بَنِي أُمَيَّةَ إِنِّي نَاصِحٌ لَكُمْ فَلَائِيَّيْنِ مِنْكُمْ أَمْنًا زُفَرٍ
فَإِنْ مَشْهَدُهُ كَفَرٌ وَغَائِلَةٌ وَمَا يُعْيَبُ مِنْ أَخْلَاقِهِ وَعَرٍ
إِنَّ الْعِدَاوَةَ تَلْقَاهَا وَإِنْ كُنْتُ كَالْعُرِّ يَكْمُنُ حِينًا ثُمَّ يَنْتَشِرُ
بَنِي أُمَيَّةَ قَدْ نَاضَلْتُ دُونَكُمْ أَنْبَاءُ قَوْمٍ هُمْ آوُوا وَهُمْ نَصَرُوا
وَقَيْسَ عَيْلَانَ حَتَّى أَقْبَلُوا رُقُصًا فَبَايَعُوكَ جَهَارًا بَعْدَ مَا كَفَرُوا
ضَجُّوا مِنَ الْحَرْبِ إِذْ عَضَتْ غَوَارِبُهُمْ وَقَيْسَ عَيْلَانَ مِنْ أَخْلَاقِهَا الضَّجْرُ

والأخطل لنصرانيته لم يستطع أن يتخذ من الإسلام سبباً للفخر ولا مادة للهجاء، فاكتفى بذكر مناقب آبائه ومثالب أعدائه. على أنه يستغل أحياناً بعض ما أنكر الإسلام فيه جو به وإن كان هو يستبيحه؛ كقوله في الأنصار يرميهم بشرب الخمر:

قَوْمٌ إِذَا هَدَرَ الْعَصِيرَ رَأَيْتَهُمْ حَمْرًا عَيْوَنُهُمْ مِنَ الْمَسْطَارِ

وكقوله في كليب بن يربوع:

بِئْسَ الصَّحَابُ وَبِئْسَ الشَّرْبُ شَرِبَهُمْ إِذَا جَرَتْ فِيهِمُ الْمَزَاءُ وَالسُّكَّرُ

أما الفرزدق فهو كالأخطل في الذؤابة من قومه، إلا أنه كان صريح العداوة فلا يوارى، فاحش الدعاية فلا يحتشم، شديد الدعارة فلا يتعفف، حاد البادرة فلا يتلطف؛ فهو في

هجائه يذكر العورات، ويعلن المخزيات، بألفاظها العارية وأسمائها الصريحة حتى ليستحي الشاب أن ينشدها، بله الفتاة الخفيرة. وما أظن البداوة وضيق الخلق وسلطنة اللسان وفجور النفس هي كل الأسباب التي أوجدت هذا الهجاء السوقي الوقح، فإن الحطيثة ومن سبقه على اتصافهم بهذه الأوصاف لم يسفوا هذا الإسفاف، فلا بد أن يكون لحياة العراق في ذلك العهد أثر قوي في ذلك. فالخلق العربي القوي قد هت وأصره باتصال البدو بالحضر واختلاط العرب بالعجم؛ والوازع الديني قد ضعف بتغلب الأحزاب وضعف العصبية؛ والسلطان السياسي يغمض جفنيه، ويضحك ملىء شديقه، من هذه المهازل التي يمثلها الشعراء والقبائل بالبصرة، أقول القبائل لأن القبيلة كانت من وراء شاعرها تحتال لانتصاره بالمال والقتال والرعاية، وربما يأتي كل رجل منهم بالبيتين والثلاثة فيرفد بها الشاعر كما فعلت تيم في مهاجاة شاعرها عمر بن لجأ لجرير. وكان أفحش الهجاء هجاء الفرزدق في جرير، فهو يرمي قومه بضعة النسب، وضعف الحيلة، واتخاذ الغنم، ورعي الإبل، وإتيان الأتن، ويفتن في هذه المعاني افتناناً عجيباً: يرددها في كل قصيدة على صور مختلفة وأساليب شتى، ولا يتحرج أحياناً من افتعال الحوادث المضحكة إمعاناً في السخر من المهجو والنيل منه. وهذا غاية ما وصل إليه الهجاءون وأهل التنادر في عصور الترف والخلاعة. وأدهى من ذلك أن يقذف خصمه بنوع من السباب الذي لا يعتقد هو ولا يصدق الناس، إنما يعتمد إليه مبالغة في التحقير والتشهير على نحو ما يعمل الرعاع في الطبقات الوضيعة، وذلك ما لم نعهده في الهجاء من قبل. إذ كان الشاعر يرى جهة المحاسن في المرء فيمدح، أو جهة المساوىء فيه فيذم، وهو في كلتا الحالين صادق.

وقد يتدلى الفرزدق في الهجاء إلى الدرك الذي لا تسيعه رجولة، فينقص رثاء جرير لامرأته بهجائها المقذع، دون أن يرعى للميت حرمة ولا للمرأة كرامة، كقوله:

كانت منافقة الحياة وموتها	خزي علانية عليك وعار
فلئن بكيت على الأتسان لقد بكى	جزعاً غداة فراقها الأعيار
تبكي على امرأةٍ وعندك مثلها	قعساءً ليس لها عليك خمار
وليكيفينك فقد زوجتك التي	هلكت موقعةً الظهور قصار
إن الزيارة في الحياة ولا أرى	ميتاً إذا دخل القبور يُزار

ورأي الفرزدق في المرأة يدل على جفاء طبع وسوء أنفة، وربما دل أيضاً على منزلتها في المجتمع العربي في ذلك العهد، ولا نستنبط ذلك من قوله في زوجة جرير فقد يكون للخصومة بعض الأثر في سوئه، وإنما نستنبطه من قوله في زوجته هو حين ماتت:

يقولون زُر حدراء والترب دونها	وكيف بشيء وصله قد تقطعا
ولست وإن عزت عليّ بزائر	تراباً على مرموسه قد تضععا

وأهون مفقود إذا الموت ناله
يقول ابن خنزير بكيّت ولم تكن
وأهون رزء لأمريء غير عاجز
على المرء في أصحابه من تقنعا
على امرأة عيني إخال لتدمعا
رزية مرتج الروادف أفرعا

على أن طبيعة المهاجاة مع جرير، وشهوة الغلبة عند العامة، ونفاد المعاني في الهجاء على طول المدة، وبلادة الحس وهوان النفس باعتياد الدم، قد دعت الفرزدق كما دعت جريراً إلى التدرج في الإقذاع والبذاء، حتى خرج شعرهما في النقائص على قوته وجودته عن الحد المألوف بين السفلة. ولكن الفرزدق مع تبذله كان يصيخ أحياناً إلى وازع الدين لتشيعه فيتوب عن فرض الشعر، ويكف عن هجاء الناس، ويقيّد نفسه ليحفظ القرآن ويقول:

ألم ترني عاهدت ربي وأنني
على قسم لا أشتم الدهر مسلماً
لَبَّيْن رتاج قائماً ومقام
ولا خارجاً من فيّ سوء كلام

أويستجيب إلى داعي الشرف لحسبه فيصدر في الهجاء عن طبع أبيّ ونفس كريمة، فتسمو معانيه وتعف ألفاظه، كقوله في معاوية وقد حبس عنده مالا لأحد أعمامه بعد وفاته:

أبوك وعمي يا معاوي أورثا
فمال بال ميراث الحُتاتِ أخذته
تراثاً فيحتاز التراث أقاربه
وميراث حرب جامد لك ذائبه
فلو كان هذا الأمر في جاهلية
علمت من المرء القليل حلائبه

إلى أن يقول:

وما ولدت بعد النبي وأهله
وكم من أب لي يا معاوي لم يزل
نمته فروع المالكين ولم يكن
كمثلي حصاناً في الرجال يقاربه
أغر يباري الريح ما ازورّ جانبه
أبوك الذي من عبد شمس يخاطبه

أما الطامة الكبرى فهي جرير، لأنه كان مرسل العنان مطلق اللسان لا يعوقه قيد ولا تكبحه شكيمة. فلا هو صاحب سياسة كأخطل، ولا صاحب نحلة كالفرزدق، ولا وارث مجادة كالثنين، وإنما كان سوقياً ترعيةً رزقه الله حدة الذهن ورقة الأسلوب وخبث اللسان، وزاده الهراش صلابة عود، وغزارة فكر، ومتانة شعر، وسهولة قافية، فبلغ بالهجاء الفردي والقبلي غايته في الإقذاع والإقناع والقوة. وربما كان أول من أكره الشعر على قبول الأساليب العامة المبتذلة في الهجاء كذكر العورات وهتك المحارم، فاضطر خصومه إلى أن يكلموه باصطلاحه، ويقاتلوه بسلاحه، وأصبح بعده الهجاء في العراق لا يفعل في النفوس إلا مشوباً بهذا القدر. وما مهاجاة بشار وحماد إلا صورة من هجاء جرير والفرزدق.

كان جرير لعاميته وبيئته، وللأسباب التي ذكرناها من قبل في معرض الكلام عن الفرزدق، يصطنع في الهجاء أساليب الدهماء، فيعير الأخطل بالقاف والخنزير والسُّكر؛

ويقذف البعيث في أمه وهي أمة سجستانية؛ ويهاجم الفرزدق في جدته فيتهمها بجبير القين، وفي أخته جعثن فيرميها بابتدال بني منقر إياها على إثر حادثته مع ظمياء بنت طلحة حفيدة قيس بن عاصم، ويشهر بقومه في إخفار عمرو بن جرموز لدمتهم في قتل الزبير، ثم يتسفت عيوبه الصغيرة وهفواته الدنيا فيجسمها بالمبالغة والتزويد، كضربته النابية للرومي، وزيجته القالية من نوار.

وكان الفرزدق يذهب في هجائه مذهب الفخر بآبائه، فيعدد أيامهم الظافرة، ويجدد مفاخرهم الغابرة، فلا يستطيع جرير مجاراته في هذا المضمار، فيعمد إلى نقض الفخر الصلِّف بالسخرية اللاذعة والفحش الموجع. وإذا أخذ جرير هذا المآخذ لا يقام له. اقرأ على سبيل المثال قصيدة الفرزدق التي مطلعها:

إن الذي سمك السماء بثى لنا بيتاً دعائمه أعز وأطول

تجده يقول بعد هذا البيت:

ومجاشع وأبو الفوارس نهشل
أبدأ إذا عُدَّ الفَعَالُ الأفضَل

بيتاً زُراةٍ محتبٍ بفنائهِ
لا يحْتبِي بفناء بيتك مثلهم

فيجيبه جرير في نقيضته لها:

وبنى بناءك في الحضيض الأسفل
دنسا مقاعده خبيث المدخل
تَباً لحبوتك التي لم تحلل
ومَجَرُّ جعثنك بذات الحرمل
وعِجان جعثن كالطريق المُعِيل

أخزي الذي سمك السماء مجاشعاً
بيتاً يحمم قينكم بفنائهِ
قتل الزبير وأنت عاقدُ حيوهِ
وافاك غدرك بالزبير على مني
بات الفرزدق يستجير لنفسه

ويقول الفرزدق:

والسابعاتِ إلى الوغى تنسربل

حلل الملوك لباسنا في أهلنا

فيجيبه جرير:

بعد الزبير كحائض لم تغسل

لا تذكروا حلل الملوك فإنكم

ويقول الفرزدق:

وتخالنا جنا إذا ما نهشل
ثهلان ذو الهضبات هل يتحلحل؟
وإليه كان جباء جفنةً ينقل
وأبوك خلف أتانه يتقمل

أحلامنا تزن الجبال رزانة
فادفع بكفك إن إردت بناءنا
خالِي الذي غصب الملوك نفوسهم
إننا لنضرب رأس كل قبيلة

فيجيبه جرير:

مثل الذليل يعود تحت القرميل
ليس ابن ضبة بالمعم المخول
خفت فلا يزنون حبة خردل
مثل الفَراش عشرين نار المصطلي

كان الفرزدق إذ يعود بخاله
وافخر بضبة إن أمك منهم
أبلغ بني وقبان أن حلومهم
أذري بحلمهم الفياش فأنتم

ويقول الفرزدق:

وأبويزيد وذو القروح وجرول

وهب القصائد لي النوابغ إذ مضوا

ثم يمضي يعدد الشعراء الفحول ويقول:

فورثتهن كأنهنَّ الجنادل

دفعوا إليّ كتابهن وصية

فيجيبه جرير:

فسقيت آخرهم بكأس الأول
وصغي البعيث جدعت أنف الأخطل
ويعد شعر مرقش ومهلهل

أعددت للشعراء سما ناقعاً
لما وضعت على الفرزدق ميسي
حسب الفرزدق أن يسب مجاشع

فأنت تلاحظ أن جريراً يرغب في الطريق السهل، ويظفيء حرارة الجد ببرودة الهزل، ويقابل الكميّ الهاجم في سلاحه ولأتمته، وهو في ثوب المهرج وبزّته وضحكته.

ولجرير قدرة بارعة على تتبع الخصم في حياته الخاصة والعامّة، فيتسقط أخباره، ويتلقظ حوادثه. ثم يعلنها في شعره تشهيراً به وفضيحة له:

يتزوج الفرزدق من حدراء بنت زيق بن بسطام على حكم أبيها؛ فيقول جرير:

يا زيق ويحك من أنكحت يا زيق
يا زيق ويحك هل بارت بك السوق
لا الصهر راض ولا ابن القين معشوق

يا زيق قد كنت من شيبان في حسب
أنكحت ويحك قينا في استه حمم
يارب قائلة بعد البناء بها:

فيقبل أهلها عليه ويقولون له ماتت، كراهة أن يهتك أعراضهم جرير، فيأبى جرير إلا

أن يعلن الحقيقة في قوله:

وأقسم ما ماتت ولكنما التوى
بحدراء قوم لم يروك لها أهلاً

ويبعث الفرزدق في المدينة عبث الشباب ويعترف بذلك في قوله:

كما أنقض باز أتمت الريش كاسره

هما دلتاني من ثمانين قامة

فيقول له جرير:

وقصرت من باع العلا والمكارم

تدليت تزني من ثمانين قامة

ويضرب الروميّ في حضرة سليمان بن عبد الملك فينبو عنه سيفه فيقول له جرير:
 بسيف أبي رغووان سيف مجاشع ضربت ولم تضرب بسيف ابن ظالم
 ومثل هذه الأخبار لطرافتها وجدّتها تعلق بالنفوس وتسير على الألسنة، كصحف
 الأحزاب تجعل من حياة خصومها اليومية مادة لجدالها، وموضوعاً لنقدها ونضالها. وجرير
 لطول ما تمرس بالهجاء وغامر في الخصومة لاذع السخرية، فاحش الدعابة، مر التهكم،
 ومن ذلك كان يتضور الفرزدق ويمتقع لونه كلما وردت المربد قصيدة لجرير. وأي تهكم
 أمض وآلم من مثل قوله:

يأتيهم إن بيوتكم تيمية قُعس العماد قصيرة الأطناب
 قوم إذا حضر الملوك وفودهم نُتفت شواربهم على الأبواب
 وقوله:

زعم الفرزدق أن سيقتل مربعاً أبشر بطول سلامة يا مربع!
 وقوله:

والتغليبي إذا تنحج للقرى حك استه وتمثل الأمثالا
 وقوله:

فحلّ الفخر يا ابن أبي خليلد وأدّ خراج رأسك كل عام
 لقد علقت يمينك رأس ثور وما علقت يمينك باللجام

وكان الهجاء كان في جرير غريزة يرمي الناس عنها لأدنى سبب وعلى غير معرفة، فقد
 دخل على الوليد بن عبد الملك وعنده عدي بن الرقاع العاملي، فقال له الخليفة: أتعرف
 هذا؟ قال: لا يا أمير المؤمنين. فقال: هذا رجل من عاملة. قال جرير: التي يقول فيها الله:
 ﴿عاملة ناصبة * تصلى ناراً حامية﴾^(١)، ثم قال بيتاً قبيحاً ورد عليه عديّ بمثله فهجاه جرير
 بقصيدة منها ذلك البيت المشهور:

وابن اللبون إذا مالز في قرن لم يستطع صولة البزل القناعيس

ولعل ذلك راجع إلى ميل في طبع أمه إلى هذا الضرب من البذاء والإيذاء فاشتتت أن
 تراه فيه، حتى صُورت لها تلك الأمنية في الحلم، فرأت وهي حامل به أن حبلاً نزل منها
 فصار يثب على الناس فيختقمهم واحداً بعد واحد. فلما تأولت رؤياها قيل لها إنك تلدين ولدأ
 يكون شديد الهجاء والبلاء على الناس والشعراء، فسمته لذلك جريراً. وسواء أرات أمه
 هذه الرؤيا أم افترتها، فقد كان لها ولا ريب أثر قوي في توجيه قريحته منذ طفولته.

(١) سورة: الغاشية، الآية: ٣ - ٤.

وهجاء جرير على الجملة ضعيف الفخر لبعده مستقاه فيه، وما استطاع الفرزدق أن يعجزه إلا في مشواره، فهو يقول له بحق:

غلبتك بالمفقا والمعنى
وبيت المحتبى والخافقات

يريد بالمفقا أو المفقىء قوله:

ولست ولو فقات عينك واجداً
أبا لك إن عد المساعي كدارم

وبالمعنى قوله:

وإنك إن تسعى لتدرك دارماً
لأنت المعنى يا جرير المكلف

وبالمحتبى قوله:

بيتاً زرارة محتب يفنائه
ومجاشع وأبو الفوارس نهشل

وبالخافقات قوله:

وأين تُقضى المالكات أمورها
بحق وأين الخافقات اللوامع

والفرزدق يريد بهذه الأبيات الإشارة إلى القصائد التي تضمنتها وهي من عيون شعره وميتين فخره.

وضعف جرير في الفخر إنما يرجع إلى الموضوع لا إلى الأسلوب، فإنه أجمل خصومه صياغة، وأوفرهم بلاغة، وأرقهم لفظاً، وألطفهم مدخلاً، وأكثرهم افتناناً. ولسهولة شعره وقلة غريبه نفق عند العامة والشعراء، دون الرواة والعلماء.

وهجاء هؤلاء الأقران الثلاثة إذا استثنينا منه المعاي الجديدة واللهجة الشديدة والتصوير البارع، لم يخرج عن سمت الهجائين الفحول كالمخبل الفريعي، وحسان بن ثابت، والحطيئة، في الابتداء بوصف الطلل والغزل، والاعتماد على المفاخرة والمنافرة، وتلمس العيوب من خبايا الماضي، والانتقال المقتضب من معنى إلى معنى. وأشد ما يعيب هجاء جرير والفرزدق كثرة التكرار، فإن كلا الرجلين إنما يهجو صاحبه بطائفة من الحوادث والصفات ذكرناها من قبل، فلا تراه يعدل عنها، ولا يكاد يزيد عليها، وإنما يرددتها في كل قصيدة أو نقيضة في أساليب شتى وقواف مختلفة. فإذا قرأنا لكل واحد منهما واحدة منهن لا يضيرنا بعدنا ألا نقرأ غيرها. كذلك إذا ألمنا بهجاء الأخطل والفرزدق وجرير فقد ألمنا بسائر الهجاء في هذا الطور، لأنه مصوغ من مادته ومضروب على مثاله.

على أن أساليب شعراء العراق في الهجاء الحزبي تختلف عنها في الهجاء الفردي، فبينما هم في هذا لا يترفعون عن الهجوم ولا يتورعون عن الكذب تراهم في ذلك يذهبون مذهب الجاهليين، يفاخرون بالنسب، ويتكاثرون بالعدد والمال، ويؤثرون اللفظ الشريف

والأسلوب العف، بيد أنهم يغلون في الفخر حتى يجعلونه في الدين والحكم والعلم
والموطن .

قال أعشى همدان وهو من أنصار ابن الأشعث :

اكسع البصري إن لاقيته إنما يكسع من قل وذل
واجعل الكوفي في الخيل ولا تجعل البصري إلا في النفل
وإذا فاخرتمونا فاذكروا ما فعلنا بكم يوم الجمل
بين شيخ خاضب عُثنونه وفتى أبيض وضاح رفل
جاءنا يخطر في سابعة فذبحناه ضحى ذبح الحمل
وعفونا فنسيتم عفونا وكفرتم نعمة الله الأجل

ومن هجائه السياسي الديني قوله مرتجزاً في الحجاج :

شطت نوى من داره بالإيوان إيوان كسرى ذي القرى والريحان
إن ثقيفاً منهم الكذبان كذابها الماضي وكذاب ثان
أمكن ربي من ثقيف همدان إننا سمونا للكفور الفتان
حين طغى بالكفر بعد الإيمان بالسيد الغطريف عبد الرحمن
سار بجمع كالدي من قحطان فقل لحجاج وليّ الشيطان
يثبت لجمع مذحج وهمدان فإنهم ساقوه كأس الذيفان
وملحقوه بقرى ابن مروان

وهذا النوع من الهجاء قليل النفاق والبقاء، كثير النفاق والرياء، لطمع الشعراء
في حياء الخلفاء وإيثارهم في الغالب سلامة البدن على سلامة العقيدة. وليس الهجاء
الحزبي إلا صورة من صور الشعر السياسي الذي نفق في هذا العصر. وما نزع بهذه
التسمية أن الإسلاميين قد وقعوا على مذهب في الشعر جديد القصد والغاية، فإن مساجلة
الخصوم بالشعر كانت مألوفة في عصر الجهالة مشروعة في عهد النبوة؛ إنما نقصد بالشعر
السياسي طائفة من المعاني الجديدة استوحتها خواطر الشعراء من اختلاف الأحزاب في
الرأي، وتنازع الزعماء على الحكم. جاءت هذه المعاني الجديدة على النهج القديم في
صور مختلفة، نستطيع أن نردها إلى أربع :

١ - في صورة المدح المشوب بالتحريض والتعويض كقول أبي العباس الأعمى :
أبني أمية لا أرى لكم شهباً إذا ما التفت الشيعُ
سعة وأحلاما إذا نزع أهل الحلوم فضرها النزع
أبني أمية غير أنكم، والناس فيما أطمعوا طمعوا.
أطمعتمو فيكم عدوكمو فسما بهم في ذاكم الطمع

فلو أنكم كنتم لقومكم
عما كرهتم أو لردهم
وكقول الكميت:

بني هاشم رهط النبي فإنني
خففت لهم مني حناحي مودة
وأرمني وأرمي بالعداوة أهلها
بهم ولهم أرضى مراراً وأغضب
إلى كنف عطفاه أهل ومرحب
وإني لأوذى فيهم وأؤتّب

وكفة الأمويين في هذا الباب أرجح ، لما تجمع لهم من الترغيب في المال ، والترهيب بالملك ، والتمليق لهوى النفوس ، فمدحهم ونصرهم أكثر الشعراء في عصرهم ، إما دفعاً لشهرهم ، وإما طمعاً في خيرهم ، حتى الذين شايعوا خصومهم من الزبيريين والعلويين لم يستطيعوا حبس لعابهم عن عطايا القصر .

٢ - وفي صورة الهجاء كما مر ، وكما قال أعشى ربيعة لعبد الملك :

آل الزبير من الخلافة كالتى
أو كالضعاف من الحمولة حملت
قوموا إليهم لا تناموا عنهم
إن الخلافة فيكمولا فيهم
أمسوا على الخيرات قفلاً مغلقاً
عجل النتاج بحملها فأحالها
ما لا تطيق فضيحت أحمالها
كم للغواة أطلثم إمهالها
ما زلتم أركانها وثمانها
فانهض بيمينك فافتتح أقفالها

٣ - وفي صورة اقتراح لسياسة واستطلاع لرأي ، كقول مسكين الدرامي ، وقد أوعز إليه معاوية أن يقترح البيعة من بعده لابنه يزيد ليعلم رأي قومه في ذلك .:

إليك أمير المؤمنين رحلتها
ألا ليت شعري ما يقول ابن عامر
بني خلفاء الله مهلاً فإنما
إذا المنبر الغربي خلاه ربّه
تثير القطا ليلاً وهن هجود
ومروان أم ماذا يقول سعيد
يبوئها الرحمن حيث يريد
فإن أمير المؤمنين يزيد

فلما أتم إنشاده قال له معاوية :ننظر فيما قلت يا مسكين ونستخير الله .

ومثل ذلك حدث من عبد الملك ، فقد أراد أن ينقل ولاية العهد من أخيه عبد العزيز إلى ابنه الوليد ، فأمر النابغة الشيباني أن يقترح ذلك في حضرة الناس فقال :

لابنك أولى بملك والده
داؤد عدل فاحكم بسيرته
وهم خيار فاعمل بسنتهم
رنجم من قد عصاك مُطرح
تم ابن حرب فإنهم نصحوا
واحي بخير واكده كما كدحوا

فابتسم عبد الملك ولم يتكلم ، فعلم الناس أن ذلك أمره .

٤ - ثم في صور جدل في رأي أو بيان لمذهب؛ فمن الجدل السياسي ما وقع بين كعب بن جعيل والنجاشي في المفاضلة بين علي ومعاوية، فقد قال كعب:

أرى الشام تكره ملك العرا
وكل لصاحبه مبغض
وقالوا عليُّ إمام لنا
وقالوا نرى أن تدينوا لهم
وكلُّ يسر بما عنده
ومافي عليٍّ بمستعتب
وليس براض ولا ساخط
ولا هو ساء ولا هو سرّ

ق وأهل العراق لهم كارهينا
يرى كل ما كان من ذاك ديننا
فقلنا رضينا ابن هند رضينا
فقلنا لهم لا نرى أن نديننا
يرى غث مافي يديه سميننا
ينال سوى ضمه المحدثينا
ولافي النهاية ولا الأمرينا
ولا بد من بعد ذا أن يكوننا

فلما بلغ ذلك الإمام علياً أمر النجاشي أن يجيبه فقال:

دَعَنْ معاوي مالم يكوننا
أتاكم عليُّ بأهل العراق
يرون الطعان خلال العجاج
همو هزموا الجمع جمع الزبير
فإن يكره القوم ملك العراق
فقولوا لكعب أخي وائل
جعلتم علياً وأشياعه

لقد حقق الله ما تحذرونا
وأهل الحجاز فما تصنعونا؟
وضرب الفوارس في النقع دينا
وطلحة والمعشر الناكثينا
فقدماً رضينا الذي تكرهونا
ومن جعل الغث يوماً سميننا:
نظير ابن هند ألا تستحونا؟

ومن البيان المذهبي قول كثير عزة يشرح عقيدة الشيعة في الإمامة:

ألا إن الأئمة من قریش
عليُّ والثلاثة من بنيه
فسبط سبط إيمان وبر
وسبط لا يذوق الموت حتى
تغيب لا يرى فيهم زماناً

ولاة الحق أربعة سواء:
هم الأسباط ليس بهم خفاء
وسبط غيبته كربلاء
يقود الخليل يقدمها اللواء
برضوى عنده غسل وماء

وكقول ثابت قطنه، وهو من شعراء الأمويين، يفصل مذهب الإرجاء:

يا هند فاستمعي لي إن سيرتنا
نرجي الأمور إذا كانت مشبهة
المسلمون علي الإسلام كلهم
ولا أرى أن ذنباً بالغ أحداً

أن نعبد الله لم نشرك به أحداً
ونصدق القول فيمن جار أو عنداً
والمشركون استبوا في دينهم قدداً
في الناس شركاً إذا ما وحدوا الصمداً

إلى أن قال :

كل الخوارج مخطئ في مقالته
أما عليّ وعثمان فإنهما
الله أعلم ما قد يحضران به
ولو تعبد فيما قال واجتهدا
عبدان لم يشركا بالله مذ عبدا
وكل عبد سيلقى الله منفردا

هذه جملة المعارض التي عرضت بها المعاني السياسية. ولعلك تلاحظ من هذه الأمثلة أنها في الغالب مهلهلة النسخ، نابية القافية، بادية التكلف، تشبه من بعض الوجوه نظم المتنون في الشعر التعليمي. وعلة ذلك أن اتصالها بالوجدان ضعيف، وأن أكثرها إنما يصدر عن طبع مكده، أو شعور ممالق، أو قريحة كابية. والفرق بين شعر الأخطل والفرزدق وحرير، وبين شعر هؤلاء الذين ذكرنا كالفرق بين من يعبر عن شعوره وحسه، ويدافع عن قبيله ونفسه، وبين من يتصل لسانه بقلب غير قلبه، ويدفعه طمعه إلى ممالأة حزب غير حربه.

على أن من شعراء الأحزاب من قالوا الشعر عن عقائد دينية، وعواطف نفسية، ونوازع عصبية، فكان لشعرهم جمال الإخلاص وروعة اليقين وقوة الحقيقة، أولئك هم شعراء الشيعة والخوارج. فحق علينا ونحن في مقام البحث في شعراء العراق أن نديم النظر ساعة في أشعارهم، لنستشف من خلالها صور مذاهبهم وأفكارهم.

شعر الشيعة :

ورث عليّ بن أبي طالب بحكم مولده ومرباه مناقب النبوة، ومواهب الرسالة، وبلاغة الوحي، وصراحة المؤمن، وبسالة المجاهد، فأجمع الناس على إجلاله وكادوا يطبقون على حبه. حتى من كتب عنه من الأوربيين قد شاركوا المسلمين في هذه العاطفة؛ فقد قال فيه الكاتب الإنجليزي كارليل: «أما ذلك الفتى علي فلا يسعك إلا أن تحبه. ركب الله في طبعه النبيل منذ الحداثة، وتجلّى في خلاله الكرم طوال عمره، ثم طبعه على العمل ونفاذ المهمة وصراحة البأس، وآتاه سر الفروسية وجرأة الليث، وكل أولئك في رقة قلب وصدق إيمان وكرم فعال تليق بالفروسية المسيحية». ثم سار عليّ في خصومته وخلافته وسياسته على ضوء هذه الأخلاق، فما قارف الأثرة، ولا حاول الفرقة، ولا راقب الفرصة، ولا أثار العصبية، ولا استخدام المال، وإنما أخلص النية للعمرين، ومحض النصيحة لعثمان، وأعذر بالحجة لمعاوية. ولكن دنيا الفتوح كانت قد أخذت على عهده تتجاهل دين البساطة والزهد. ولم نعد السياسة الدينية وحدها قادرة على كبح النفوس المفتونة بمال معاوية في الشام، وثوراء لرافدين في العراق، فانتشر أمره وانصعدت خلافته ثم قتل مظلوماً في محرابه؛ فكان محياه ومماته تاريخاً دائماً للفصيلة المعذبة والنفس المطمئنة الشهيدة. ثم ورث بنيه وأهليه ذلك

العزم الثائر وهذا المجد الثائر، فدب الموت للحسن سراً في كأس مذعوفة، وقتل الحسين قِتلةً لا يزال يردد من هولها الدهر.

وتلاحقت الفواجع الأموية فصرع زيد وقتل يحيى، وافتتت المنايا الرواصد في اختلاج بني عليّ، وهم يقابلون هول الغوائل الظاهرة والباطنة بالشجاعة والصبر والاحتساب، حتى أسفرت حول وجوههم طقاوة من التنزيه والتقديس وتخللت محبتهم قلوب المسلمين، ولا سيما الشيعة، فإن ندمهم على خذلانهم إياهم، وألمهم لما رأوا من اضطهادهم وأذاهم، رفعا في نفوسهم ذلك الحب حتى أشرفا به على مقام العبادة. ثم ظهر ذلك الحب في صور من العقائد: فقالوا بالوصية، وجعلوا الإمامة من أصول الدين، وحصروها في عليّ وبنيه، وطعنوا في إمامة الشيخين. ولم يتهياً لهم السلطان، ولم تسعفهم القدرة، فاعتمدوا على استمالة القلوب وترقيقها بالبكاء والندب، وتصوير الآلام، وإعلان الفضائل، فاصطبغ شعرهم بالحزن العميق، والرثاء النائح، والمدح المبتهل، والعصبية الحاقدة. على أن هذه الخصائص لم تكن واضحة في شعر أوائل الشيعة وضوحها في شعر الأواخر منهم؛ فإن تغلغل الفكرة في أصل العقيدة، وتنكيل الحاكمين بآل البيت، واضطهاد الولاة للشيعة، إنما تدرجت قسوة وقوة مع الزمن، فضلاً عن قلة شعراء الشيعة في هذا العصر لإفساد الأمويين الضمائر بالحديد والذهب، فشعرهم بدأ ولاء صادقاً، ومدحاً خالصاً، وهجاء مرأً، ثم اشتد فصار مفاضلة جريئة، ومعارضة شديدة، ومناقشة فقهية، ودعاية حزبية. ولعل ذلك يتجلى لك فيما ذكرناه وفيما سنذكره من الأمثلة. فمن التعبير عن العاطفة القوية الساذجة قول أبي الأسود الدؤلي:

يقول الأذلون بنوقشير	طوال الدهر لا تنسى علياً!
بنو عبد النبي وأقربوه	أحبُّ الناس كلهم إلياً
أحبهم كحب الله حتى	أجىء إذا بُعثت على هويأ
فإن يك حبهم رشداً أصبهُ	ولست بمخطيء إن كان غيأ

ومن المدح والمفاضلة قول أيمن بن خزيم الأسدي:

نهاركم مكابدة وصوم	وليلكم صلاةً واقتراء
أجمعكم وأقواماً سواء	وبينكم وبينهم الهواء؟
وهم أرض لأرجلكم وأنتم	لأرؤسهم وأعينهم سماء

ومن الهجاء قول ابن مفرغ الحميري:

ألا أبلغ معاوية بن صخر	مغلغلة من الرجل اليماني
أتغضب أن يقال أبوك عفت	وترضى أن يقال أبوك زاني؟
فأشهد إن رحمك من زياد	كرحم الفيل من ولد الأتان

وأشهد أنها ولدت زياداً وصخر من سُميَّة غير داني

وقول عبد الله بن هشام السلولي في يزيد بن معاوية :

حُشِينَا الغِيظَ حَتَّى لَوْ شَرَبْنَا دِمَاءَ بَنِي أُمِيَّةٍ مَارُونَا
لَقَدْ ضَاعَتْ رَعِيَّتِكُمْ وَأَنْتُمْ تَصِيدُونَ الْأَرَانِبَ غَافِلِينَ

ومن المناقشة الجدلية قول الكميت في الخلافة :

يقولون لم يورث ولولا تراثه ولا انتشلت عضوين منها يُحَابِرُ
لقد شَرَكْتَ فِيهِ بِجِيلٍ وَأَرْحَبُ وَإِنْ هِيَ لَمْ تَصْلُحْ لِحَيِّ سَوَاهِمُ
وكان لعبد القيس عضو مؤرَّبُ وَإِنْ هِيَ لَمْ تَصْلُحْ لِحَيِّ سَوَاهِمُ
إِذْ نَ فذوو القربى أحق وأقربُ فَيَالِكَ أَمْرًا قَدْ تَشَتَّتْ جَمْعُهُ
وإذن فذوو القربى أحق وأقربُ تَبَدَّلَتْ الْأَشْرَارُ بَعْدَ خِيَارِهَا
وداراً ترى أسبابها تتقضبُ

ويكاد الكميت بن زيد الأسدي بقصائده الهاشميات يكون الشاعر الفذ لبني هاشم؛ فقد مدحهم واحتج لهم ودافع عنهم بلسان صادق واعتقاد خالص ونفس جريئة وقريحة سمحة . ولما أهدر هشام بن عبد الملك دمه لجأ على ما أرجح إلى التقيَّة في شعره على عادة الشيعة، فقال من كلمة يمدحه فيها .

فالألآن صرْتُ إلى أُمِيَّةٍ وَالْأُمُورُ إِلَى الْمَصَايِرِ
يا ابن العقائل للعقا ئل والحجاجحة الأخايِرِ
من عبد شمس والأكابر من أُمِيَّةٍ فَالْأَكَابِرِ
لكم الخلافة والإلآ ف برغم ذي حسد وواغر

ومهما يقل الكميت فإن عاطفة شعراء الشيعة ستظل كما قلنا مكظومة بالطمع والخوف حتى تنبجس في عهد بني العباس نفثات غيظ، وحسرات حزن، وعبرات ألم في شعر السيد الحميري، ، ودعلب الخزاعي، وديك الجن، ومطيع بن إياس، وأبي الشيص، والعكوك، وأضرابهم .

شعر الخوارج :

وأما الخوارج - وجمهرتهم من البدو الجفاة والسذج - فقد قام أمرهم على الصلابة في الرأي، والمكابرة في القول، والاشتطاط في الحكم، والتشدد في الدين، والغلو في العبادة، والقسوة في المعاملة، والاعتماد على الحرب . شايعوا علياً وأزروه حتى قبل التحكيم، فقالوا له : حَكَمْتَ الرِّجَالَ وَلَا حَكْمَ إِلَّا لَهِ ! ثم خرجوا عليه وأبو أن يرجعوا إليه إلا إذا أقر على نفسه بالكفر، ونقض ما عاهد معاوية عليه . فأبى عليهم ما سألوا، وأوقع بهم يوم النهروان، فزاد ذلك في حنقهم عليه وخلافهم له، فأتتمروا به واغتالوه . واستعرضوا أعمال

الخلفاء وعقائد الناس، فخطأوا بعضاً وكفروا بعضاً. ثم ذهبوا إلى أن الخلافة تصح في غير قريش وفي غير العرب، وأن العمل جزء من الإيمان، فحرصوا كل الحرص على أداء الشعائر واجتناب الكبائر، ولأذوا بكور الجبال يدعون جهراً إلى مذهبهم دون مواربة ولا تقية ولا هوادة؛ فكانوا في الدين كما قال صاحبهم أبو حمزة الشاري: «أنضاء عبادة وأطلاح سهر. قد أكلت الأرض أطرافهم، واستقلوا ذلك في جنب الله. فإذا كان الجهاد ورعدت الكتيبة بصواعق الموت، استخفوا بوعيد الكتيبة لوعيد الله، ومضى الشاب منهم قدماً حتى اختلفت رجلاه في عنق فرسه، وتخضبت بالدماء محاسن وجهه، فإذا أنفذه الرمح جعل يسعى إلى قاتله ويقول: «وعجلت إليك رب لترضى».

وكانوا مع هذا الورع الشديد والخشية البالغة يقسون على مخالفيهم، فلا يرحمون ضعف المرأة، ولا براءة الطفل، ولا شيخوخة الهرم، ولا وشائج الرحم؛ لأنهم - كما ظنوا - باعوا أنفسهم وأموالهم لله بأن لهم الجنة، فقطعوا أسباب الحياة، وأماتوا عواطف الدنيا، وقاتلوا وقتلوا في سبيل هذا المذهب وتلك الغاية، وهم لصراحة بداوتهم، وشدة عصبيتهم، وخلوص عقيدتهم. وما تقتضيه دعوتهم من إدمان الحجاج والمناظرة أساس الناس منطقاً، وأروعهم كلاماً، وأمتنهم شعراً. ولكن الشعر كان عندهم في المحل الثاني من الخطابة، لقيام أمرهم على الإقناع والجدل بآيات الله وأحاديث الرسول؛ وغناء الشعر في ذلك قليل. فإذا ما برز الخارجي للخصم، أو هجم على الموت، أو وقع في الأسر، جاشت نفسه بمتين الرجز، أو رصين القصيد، يضمنه وصفه للحرب، وولفه للقتال، وزهده في الحياة، واستخفافه بالموت، وشوقه إلى الشهادة، وظمأه إلى الجنة، في لفظ جزل وأسلوب قوي، وقلما يدور شعرهم على غير ذلك. فمن الرجز قول ابن أم حكيم:

أحمل رأساً قد سئمت حمله وقد مللت دهنه وغسله
ألا فتى يحمل عني ثقله!

ومن القصيد قول معاذ بن جوين يحرض قومه وهو أسير:

ألا أيها الشارون قد حان لامرئ
أقمتم بدار الخاطئين جهالة
فشدوا على القوم العداة فإنها
ألا فاقصدوا يا قوم للغاية التي
فياليتني فيكم على ظهر سابع
فيارُب جمع قد فللت، وغارة
شرى نفسه لله أن يترحلا
وكل امرئ منكم يصاد ليقتلا
أقامتكم للذبح رأيا مضللا
إذا ذكرت كانت أبر وأعدلا
شديد القصيرى دارعاً غير أعزلا
شئت، وقرنٍ قد تركت مجندلا

وقول الطرماح بن حكيم:

لقد شقيتُ شقاءً لا انقطاع له
إن لم أفز فوزة تنجي من النار

إلا المنيبُ بقلب المخلص الشاري
له السعادة من خلاقها الباري

والنار لم ينجُ من لهيبها أحد
أو الذي سبقت من قبل مولده

وقوله:

يصابون في فج من الأرض خائف
تُقى الله نزالون عند الزواحف
وصاروا إلى ميعاد ما في المصاحف

وأسي شهيداً ثاوياً في عصابة
فوارس من شيبان ألف بينهم
إذا فارقوا دنياهمو فارقوا الأذى

وكقول قَطْرِي بن الفجاءة في يوم دولاب:

يمج دماً من فائظ وكليم
أغر نجيب الأمهات كريم
له أرض دولاب ودير حميم
تبيح من الكفار كل حريم
بجنات عدن عنده ونعيم

فلم أزيوما كان أكثر مَقْصعاً
وضاربة خدأً كريماً على فتى
أصيب بدولاب ولم تك موطناً
فلو شهدتنا يوم ذاك وخيلنا
رأت فتية باعوا الإله نفوسهم

وقليلاً ما يجادل الخوارج بالشعر ويقارعون بالهجاء، لاعتمادهم في الجدل على
الخطابة، وفي القراع على السيف. ومن هذا القليل قول بعضهم في الجدل وقد هزم
أربعون منهم ألفين لابن زياد:

ويقتلكم بأسك أربعونا
ولكن الخوارج مؤمنونا
على الفئة الكثيرة ينصرونا

ألفا مؤمن فيما زعمتم
كذبتم ليس ذاك كما زعمتم
هي الفئة القليلة قد علمتم

وقول عمران بن حطان في هجاء الإمام:

كفاه مهجة شر الخلق إنسانا
مما جناه من الأثام عُريانا

لله در المرادي الذي سفكت
أمسى عشية غشاه بضربته

وما حمله على ذلك إلا أنه من القعدة لضعفه عن الحرب لكبر سنه فجاهد بلسانه .

نماذج من الشعر الأموي

قال قَطْرِي بن الفجاءة:

من الأبطال ويُحك لن تراعي
على الأجل الذي لك لم تُطاعي
فما نيل الخلود بمستطاع
فُطوى عن أخي الخنع اليراع

أقول لها وقد طارت شعاعا
فإنك لو سألت بقاء يوم
فصبراً في مجال الموت صبراً
ولا ثوب البقاء بثوب عز

فداعيه لأهل الأرض داع
وتُسلّمه المنون إلى انقطاع
إذا ماعدٌ من سَقَطَ المتاع

لم تفرق أمورها الأهواء
لك قريش وتشمّت الأعداء
بيد الله عمرها والفناء
لا يكن بعدهم لحي بقاء

ومن يُؤت أثمان المحامد يُحمَد
ويعلم أن البخل غيرٌ مخلدٌ
تهلل فاهتز اهتزاز المهند
تجد خير نار عندها خيرٌ مُوقد

بُورك هذا هادياً من دليل
ذلك منه خُلق ما يحول
ألقي فيها وعليه الشليل!

ولا استعذب العوراء يوماً فقالها
كما فَضَلتْ يمني يديه شمالها
وأمرأ بأفعال الندى وافتعالها
إذا مارأى حقاً ابتذالها
وباعك في الأبواج قدماً فطالها
إذا الخود عدتْ عَقَبَة القدر مالها

إذا لم تصبه في الحياة المعابر
بأخلد ممن غيبته المقابر
ولا الميت إن لم يصبر الحيُّ ناشر
وكل امرئ يوماً إلى الموت صائر
ستاتاً وإن ضناً وطال التعاشر
أخا الحرب إن دارت عليك الدوائر

سبيل الموت غاية كل حي
ومن لا يُعتَبَطُ يسأم ويهرم
وما للمرء خيرٌ في حياة
وقال عبد الله بن قيس الرُقيات في قريش:

حبذا العيش حين قومي جميعُ
قبل أن تطمع القبائل في مد
أيها المشتهي فناء قريش
إن تودع من البلاد قريش

وقال الحطيئة يمدح بغيض بن لأيي:
تزور امرأً يؤتي على الحمد ماله
يرى البخل لا يُقي على المرء ماله
كسوب ومتلاف إذا ما سألته
متى تأته تعشوا إلى ضوء ناره

وقالت الخنساء:
دلّ على معروفه وجهه
تحسبه غضبان من عزه
ويُلمّه مسعراً حرب إذا

وقال الكُميت الأسدي يمدح مسلمة بن عبد الملك:
فما غاب عن جلم ولا شهد الخنا
وتفضّل أيمان الرجال شماله
وما أجم المعروف من كرهه
ويتدل النفس المصونة نفسه
بلوناك في أهل الندى ففضلتهم
فأنت الندي فيما ينوبك والسدى

وقالت ليلي الأخيلية ترثي توبة:
لعمرك بالموت عارٌ على الفتى
وما أحدٌ حيٌّ وإن عاش سالمًا
فلا الحي مما أحدث الدهرُ مُعتَبُ
وكل جديد أو شباب إلى بلى
وكل قريني ألفة لتفرق
فلا يُبعدنك الله يا توب هالكاً

فآليت لا أنفك أبكيك ما دعت على فننٍ وورقائه أو طار طائر

وقال أبو ذؤيب الهذلي يرثي بنيه الخمسة وقد هاجروا إلى مصر فهلكوا في عام واحد:
أمن المنون وريبها تتوجع والدهر ليس بمغيب من يجزع؟
قالك أمامة ما لجسمك شاجبا منذ ابتذلت ومثل مالك ينفع
فأجبتها إرثي لجسمي إنه أودي بني من البلاد فودعوا
أودي بني فأعقبوني حسرة عند الرقاد وعبرة لا تفلح
فالعين بعدهم كأن جداتها كحلت بشوك فهي عورا تدمع
فغيرت بعدهم بعيش ناصب وإخال أني لاحق مستتبع
سبقوا هوي وأعقبوا لهوهم فتخرموا ولكل جنب مصرع
ولد حرصت بأن أذافع عنهم وإذا المنية أقبلت لا تدفع
وإذا المنية أنشبت أظفارها ألفت كل تميمة لا تنفع
وتجلدي للشامتين أريهم أني لريب الدهر لا أتضعضع
حتى كأنني للحوادث مروة بصفنا المشرق كل يوم تقرع

وقال جرير يرثي ابنه:
قالوا نصيبك من أجر فقلت لهم كيف العزاء وقد فارقت أشبالي
فارقنتي حين كف الدهر من بصري وحين صرت كعظم الرمة البالي

وقال مالك بن أسماء في الهجاء:
لو كنت أحمل خمرا يوم زرتكم لم ينكر الكلب أني صاحب الدار
لكن أتيت وريح المسك يفغمني وعنبر الهند أذكيه على النار
فأنكر الكلب ريحي حين أبصرني وكان يعرف ريح الزق والقار

وقال آخر:
أقول حين أرى كعباً ولحيته لا بارك الله في بضع وستين
من السنين تولها بلا حسب ولا حياء ولا قدر ولا دين

وقال عبد الرحمن بن الحكم:
لحا الله قيساً قيس عيلان إنها أضاعت ثغور المسلمين وولت
فشاؤل بقيس في الطعان ولا تكن أخاها إذا ما المشرفية سلّت

وقال الطرماح يهجو بني تميم:
تميم بطرق اللؤم أهدى من القظا ولو سلكت سبل المكارم ضلّت
ولو أن برغوثناً على ظهر نملة يكر على صفي تميم لولت

وقال حندج بن حندج المري يصف ليل صول:
في ليل صول تناهى العرض والطول كأنما ليله بالليل موصول

وإن بدت غُرَّةً منه وتحجيل
كأنه حية بالسوط مقتول
والليل قد مُزقت عنه السراويل
كأنه فوق متن الأرض مشكول
كأنما هن في الجو القناديل
مَن داره الحَزْنُ مُمَن داره صول!
حتى يُرى الرُبْعُ منه وهو مأهول

لا فارق الصبحَ كفي إن ظفرت به
لساهر طال في صول تمللمه
متى أرى الصبحَ قد لاحت مخايله
ليل تحير ما ينحط في جهة
نجومه رُكُدٌ ليست بزائلة
ما أقدرَ الله أن يدني عَلى شَحَطِ
الله يطوي بساط الأرض بينهما

وقالت الخنساء تصف سباقاً كان بين أبيها وأخيها:

يتعاورَان ملاءة الحضر
لزت هناك العذر بالعدر
قال المجيب هناك لا أدري
ومضى عَلى غُلوائه يجري
لولا جلال السن والكبر
صقران قد حطَّ إلى وكر

جارى أباه فأقبلا وهما
حتى إذا نزت القلوب وقد
وعلا هتاف الناس أيهما؟
برزتُ صحيفة وجه والده
أولى فأولى أن يساويه
وهما وقد برزا كأنهما

وقال الفرزدق يصف ذئباً صادفه أثناء سفره فأطعمه من زاده:

دعوت لناري موهناً فأتاني
وإياك في زادي لمشتركان
على ضوء نار مرة ودخان
وقائم سيفي من يدي بمكان
نكن مثل من يا ذئبُ يصطحبان
أخييين كانا أرضعا بلبان
رماك بسهم أو شبة سنان

وأطلس عسال وما كان صاحباً
فلما أتى قلت أدن دونك إنني
فبت أقدُ الزاد بيني وبينه
وقلت له لما تكشر ضاحكاً
تعش فإن عاهدتني لا تخونني
وأنت امرؤ يا ذئب والغدر كنتما
ولو غيرنا نبهت تلتمس القرى

وقال بعض الحجازيين يصف حال امرأته عندما علمت بزواجه من غيرها:

ت فظلت تكاتم الغيظ سراً
جزعاً: ليته تزوج عشراً!
لا ترى دونهن للسر سترأ:
وعظامي كأن فيهن فترا؟
خلت في القلب من تلظيه حمراً

خبروها بأنني قد تزوج
ثم قالت لأختها ولأخرى
وأشارت إلى نساء لديها
ما لقلبي كأنه ليس مني
من حديث نما إلي فظيع

وقال عروة بن أذينة في الغزل:

خلقت هواك كما خلقت هوي لها
بلباقه فأدقها وأجلها

إن التي زعمت فؤادك ملها
بيضاء باكرها النعيم فصاغها

حجبت تحيتها فقلت لصاحبي :
وإذا وجدت لها وساوس سلوة
وقال جميل بن معمر:

واني لأرضى من بُثِينَةَ بالذي
بلا، وبألا أستطيع، وبالمنى،
وبالنظرة العَجَلَى، وبالحول تنقضي
وقال أيضاً:

ما زُلتُم يا بثن حتى لو أنني
إذا حَدِرْتُ رجلي وقيل شفاؤها
وما زادني النَّأْيُ المَفْرُقُ بعدكم
ولا زادني الواشون إلا صباية
لقد خفت أن ألقى المنية بغتة
وقال يزيد بن الطَّرِيبِ:

بنفسي من لو مر نرد بنانه
ومن هابني في كل أمر وهبته
وقال قيس بن ذريح:

فإن يحجبها أو يحلُّ دون وصلها
فلم يمنعوا عيني من دائم البكا

وقال كثيرٌ من قصيدة يذكر فيها هجران عزة وسلوانه:
وما كنت أدري قبل عَزَّةَ ما البكا
وكانت لقطع الجبل بيني وبينها
ولم يلق إنسان من الحب مِيعَةً
أريد الشواء عندها وأظنها
فما أنصفت، أما النساء فبِعَضت
يكلفها العَيْرَانُ شتمي وما بها
هنيئاً مريئاً غير داءٍ مُخَامِرٍ
فوالله ما قاربت إلا تباعدت
فإن تكن العُتْبَى فأهلاً ومرحباً
وإن تكن الأخرى فإن وراءنا
أسيئي بنا أو أحسى لا مَلُومَةٌ
فما أنا بالداعي لعزة بالجوى

ما كان أكثرها لنا وأقلها!
شفع الضميرُ إلى الفؤاد فسألها

لو أبصره الواشي لقرت بلابله
وبالأمَلِ المَرْجُوِّ قد خاب أمله
وأخاره لانلتقي وأوائله

من الشوق أستبكي الحمام بكى ليا
دعاء حبيب كنت أنت دعائيا
سلوا ولا طولُ التلاقي تقاليا
ولا كثرة الناهين إلا تماديا
وفي النفس حاجات إليك كما هيا

على كبدي كانت شفاءً أنامله
فلا هو يعطيني ولا أنا سائله

مقالة واش أو وعيد أمير
ولم يذهبوا ما قد أجن ضميري

ولا موجعات القلب حتى تولت
كناذرة نذراً فأوفت وحلت
نعم ولا غمَاء إلا تجلَّت
إذا ما أطلنا عندها المكث ملت
إليّ، وأما بالنوال فضنت
هواني، ولكن للمليك استذلت
لعزة من أعراضنا ما استحلّت
بهجر ولا أكثرت إلا أقلت
وحقت لها العتبي لدينا وقلت
منادح لو سارت بها العيسُ كلت
لدينا ولا مقلِّبه إن تقلت
ولا شامت أن نعلُ عزة زلت

فلا يحسب الواشون أن صبايتي
فوالله ثم الله ما حل قبلها
فيا عجباً للقلب كيف اعترافه
وإني ونهيامي بعزة بعدما
لكالمرتجى ظل الغمامة كلما
فإن سأل الواشون فيم هجرتها
وقال جرير على لسان يزيد:

فأنت أبي ما لم تكن لي حاجة
وإني لمغرور أعلل بالمنى
بأي نجادٍ تحمل السيف بعدما
بأي سنان تطعن القوم بعدما
وقال مالك ابن أسماء يعتذر:

لكل جواد عثرة يستقبلها
فهبني يا حجاج أخطأت مرة
فهل لي إذا ما تبت عندك توبة
وقال الحطيئة:

أتني لسان فكذبتها
بأن الوشاة بلا حُرمة
فجئتك معتذراً راجياً
فلا تسمعن بي مقال العدى
فإنك خير من الزبرقان
وقال حسان بن ثابت:

المال يغشى رجالاً لا طبّاخ بهم
أصون عرضي بمالي أدنسه
أحتال للمال إن أودى فأجمعه
الفقر يزري بأقوام ذوى حسب
وقال كثير:

ومن لا يُغمض عينه عن صديقه
ومن يتبّع جاهداً كل عثرة

وقال كعب بن زهير:

لو كنت أعجب من شئٍ لأعجبني

بعزة كانت غمرة فتجلت
ولا بعدها من خلةٍ حيث حلّت
وللنفس لما وُطنت كيف ذلت!
تخلّيت مما بيننا وتخلّت
تبوأ منها للمقبل اضمحلّت
فقال نفسُ حسر سُليت فتسلت

فإن عرضت أيقنت أن لا أبايا
ليالي أرجو أن مالك ماليا
قطعت القوى من محمل كان باقيا؟
نزعت سناناً من قناتك ماضيا؟

وعثرة مثلي لا تقال مدى الدهر
وجرت عن المثلى وغنيت بالشعر
تدارك ما قد فات في سالف العمر؟

وما كنت أحسبها أن تُقالا
أتوك فراموا لديك المحالا
لعفوك أرهب منك النكالا
ولا تؤكّلني هديت الرجالا
أشد نكالا وخير نوالا

كالسيل يغشى أصول الدندن البالي
لا بارك الله بعد العرض في المال
ولست للعرض إن أودى بمحتال
ويقتدى بلكام الأصل أنذال

وعن بعض ما فيه يمت وهو عاتب
يجدها ولا يسلم الدهر صاحب

سعي الفتى وهو مخبوء له القدر

يسعى الفتى لأُمور ليس يدركها
فالمرة ما عاش ممدوداً له أمل
والنفس واحدة والهَمُّ منتشرٌ
لا ينتهي العمر حتى ينتهي الأثر

وقال النابغة الجعدي:

ولا خير في حِلْمٍ إذا لم تكن له
ولا خير في جهلٍ إذا لم يكن له
بوادِرُ تحمى صفوه أن يكدرًا
حليم إذا ما أورد الأمرَ أصدرا

الشعراء وطبقاتهم

نبغ في هذا العصر على قصره زهاء مائة شاعر كان لهم السهم الريح في نهضة العرب الدينية والسياسية والاجتماعية، لقوة الدعاية في الشعر، وتأثير الفصاحة في العرب، وشدة العصبية في الولاة. وشعرهم وإن سار على منهاج الجاهلية أسمى خيالاً وأقرب منالاً وأوثق مبنى وأغزر معنى من المتقدمين؛ لتأثرهم بالدين والحضارة كما علمت. وهم إما مخضرمون ككعب بن زهير والخنساء وحسان بن ثابت والحطيئة، وإما إسلاميون كعمر بن أبي ربيعة والأخطل وجريير والفرزدق والكميت والطرمّاح وكثير وذو الرمة. وكلهم صريح العربية، صحيح اللغة، فصيح اللهجة، في الشعر والنحو حجة.

وأشهر هؤلاء الشعراء كما ذكرنا من قبل ثلاثة منوا بداء السياسة، وشهوة المنافسة، فمزقوا ستائرهم وفرقوا عشائرهم، وأشاعوا هُجر القول في الناس، ولم يتعرض لهم أحد إلا افتضح؛ وهم جريير والفرزدق والأخطل. وقد انقطعوا للشعر والتكسب به، والتف حول كل منهم طائفة تفتخر به وتتصر له. ويكاد الناس لا يختلفون إلا فيهم، ولا يعقدون التفاضل إلا بينهم.

الشعراء المخضرمون

١٤ - كعب بن زهير

٠٠٠ - ٦٤٥ م

٠٠٠ - ٢٦ هـ

نشأته وحياته:

هو أبو عقبة كعب بن زهير بن أبي سلمى المزني. نشأه أبوه على الأدب والحكمة

١٤ - انظر ترجمته في: السيرة، لابن هشام، والأغاني: ١٧/٨٢-٩١، ومعجم الشعراء: ص ٣٤٢-٣٤٣، والموشح: ص ٤٦، ٨١، وسمط اللاليء: ص ٤٢١، والإصابة: =

فَسَبَّ فصيحاً شاعراً، ولما ظهر الإسلام خرج هو وأخوه بُجَيْر إلى رسول الله ﷺ، ثم بدا له فتأخر وتقدم بُجَيْر، فسمع كلام رسول الله وأسلم. فغضب كعب لإسلامه ونهاه، وهجاه وهجا رسول الله معه بأبيات يقول فيها:

ألا أبلغا عني بجيراً رسالةً
سفاك بها المأمون كأساً رويةً
ففارقت أسباب الهدى واتبعته
علي مذهب لم تُلف أمًا ولا أبًا
فإن أنت لم تفعل فلست بأسف
فهل لك فيما قلت ويحك هل لك؟
فأنهلك المأمون منها وعلك
على أيّ شيءٍ ووبَّ غيرك ذلكا
عليه ولم تعرف عليه أحًا لك
ولا قائلٍ إما عثرتَ لعاً لك!

فأهدر الرسول دمه، وأرجف الناس بقتله. وأشفق عليه أخوه فنصحته بالإسلام والتوبة والمثول بين يدي الرسول يطلب رضاه وعفوه. فلما استيأس كعب من المجير والنصير جاء إلى المدينة، وتوسل بأبي بكر إلى الرسول. ودخل في الإسلام، ومدحه بلاميته المشهورة، فعفا عنه وأمنه وخلع عليه بُردته؛ فما زالت في أهله حتى اشتراها معاوية منهم بأربعين ألف درهم، وتوارثها الخلفاء الأمويون فالعباسيون حتى آلت مع الخلافة إلى بني عثمان.

شعره:

نشأ كعب في روضة الشعر وباحة القريض فرسخت فيه ملكته، وتجلت في صغره شاعريته. فأخذ يقرضه وهو دون المراهقة. فنهاه أبوه مخافة أن يروى عنه ما لا خير فيه فيلزمه عاره. فكان كعب يأبى أن ينتهي، ويلح أبوه في منعه حتى امتحنه امتحاناً شديداً طمأنه على نصح قريحته وسلامة طبعه؛ فتركه لنفسه فتقحم أبوابه، وسلك شعابه، وأتى منه بالجيد الرصين والرائق المعجب. وأوشك أن يسامي أباه لولا غرابة في ألفاظه، وتعقيد في تراكيبه، وقصور في مطولاته؛ ومن كل ذلك برىء أبوه. ومما يدل على مكانه كعب وقيمة شعره أن الحطيئة وهو من نابهي الشعراء توسل إليه أن ينوّه بذكره في شعره حتى يشتهر، فقال:

فَمَنْ للقوافي شانها من يحوكها
كفيتك لا تلقى من الناس واحداً
إذا ما مضى كعب وفوّز جرول
تَنخَل منها مثل ما تَنخَل

نموذج من شعره:

من عيون شعره مشويته التي مدح بها الرسول، ومطلعها:
بانّت سعادُ فقلبي اليوم متبول
مُتَيِّمٌ إثرها لم يُفدَ مكبول

= ٥٩٢/٣ - ٥٩٥، وخزانة الأدب: ١١/٤ - ١٢، ومعجم المؤلفين: ١٤٤/٨، ودائرة المعارف الإسلامية، ١/٨٣٠، ٢/٦٢٤ - ٦٢٥.

ومنها:

وقال كلُّ خليل كنت آمله
فقلت خلوا سبيلي لا أبالكُم
كل ابن أنثى وإن طالت سلامته
أنبئت أن رسول الله أوعدني
مهلاً هداك الذي أعطاك نافلة الـ
لا تأخذني بأقوال الوشاة ولم

ومن قوله:

السامع الذم شريك له
مقالة السوء إلى أهلها
ومن دعا الناس إلى ذمه
ومُطعم المأكول كالآكل
أسرع من منحدر سائل
ذموه بالحق وبالباطل

١٥ - الخنساء

٠٠٠ - ٦٤٥ م

٠٠٠ - ٢٤ هـ

حياتها:

هي السيدة ثماضر بنت عمرو بن الشريد السلمية. والخنساء لقب غلب عليها: نبتت في دوحة الشرف، وازدهرت في روضة الفضل، فكان أبوها وأخوها معاوية وصخر سادات سليم من مضر. وكانت بارعة الجمال والأدب فخطبها دريد بن الصمة سيد هوازن وفارس جشم، فردته وآثرت التزوج في قومها، ولما قوض الدهر ركني بيتها بموت أخويها معاوية وصخر جزعت عليهما أشد الجزع، وبكتهما أحر البكاء، ورثتهما بأبلغ الرثاء، ولا سيما صخر لما بلته من كثرة إحسانه، وشدة حنانه، وقوة جنانه. ثم وفدت في قومها على الرسول ﷺ فأسلمت، وأنشدته فاهتز لشعرها واستزادها بقوله: هيه يا خناس! وكان في الظن أن تنهيه الخنساء بعد إسلامها دموع الجزع على أبيها وأخويها تعزياً بالدين وعزواً عن سنة الجاهلية، إلا أن وجدها على صخر كان وراء الصبر وفوق العزاء؛ فلم تزل تبكيه وترثيه حتى ايضت عيناها من الحزن. وكانت تقول: كنت أبكي له من الثار، وأنا اليوم أبكي له من

١٥ - انظر ترجمتها في: فحولة الشعراء: ص ٣٧، ٤٥، ٦٢، وطبقات فحول الشعراء: ص ١٦٩، ١٧٤، والمغتالين: ص ٢١٨، والمؤتلف والمختلف: ص ١١٠، وسمط اللاليء: ص ٧٨٢، والإصابة: ٥٤٩/٤ - ٥٥٢، وحسن الصحابة: ص ٩٤ - ٩٩، ومعجم المؤلفين: ٩٢/٣، والمراجع: ٩٢ - ٨٧/٣.

النار. على أن السن والزمن والدين ما زالت بهذه الكبد القريحة حتى اندملت؛ فوجدت الخنساء في شيخوختها آسياً من رَوْحِ اللَّهِ ومواسياً من فضله؛ فتقبلت مصرعَ بنيتها الأربعة صابرة محتسبة وقد حرضتهم على القتال في حرب القادسية فاستشهدوا جميعاً. فلم تزد على أن قالت. الحمد لله الذي شرفني بقتلهم، وأرجو أن يجمعني بهم في مستقر رحمته. ثم توفيت بالبادية عام ٢٤ هـ.

شعرها:

ليس في شواعر العرب قبل الإسلام وبعده من تفوق الخنساء في رصانة شعرها، ورقة لفظه، وحلاوة جرسه، ولربما ضارعت في هذه الصفات الشعراء الفحول. ويرى النابغة وجريز وبشار أنها أفضل من الرجال، لما في شعرها من قوة الرجولة ورقة الأنوثة. وقد غلب في شعرها الفخر والرثاء. أما الفخر فلأن أباهما أمثلُ قومه، وأخويها خيراً مضر؛ وأما الرثاء فلفجيتها فيهم وطول وجدها عليهم. والأسى يدقُّ الشعور، ويرق العاطفة، ويفتق القريحة في الرجل، فكيف به في المرأة؟ وكانت لا تقول إلا البيتين أو الثلاثة قبل مقتل أخويها، فلما قتلا فاض الدمع من عينها، والشعر من قبلها، فأنت في رثائها بالمعجب المعجز. وظلت الخنساء في شعرها بدوية جاهلية، فلم تتأثر بالإسلام كثيراً ولا قليلاً.

نموذج من شعرها:

قالت ترثي أخاها صخرًا:

أعيني جودا ولا تجمدا	ألا تبكيان لصخر الندى؟
ألا تبكيان الجريء الجميل	ألا تبكيان الفتى السيدا!
رفيع العماد طويل النجا	د ساد عشيرته أمردا
إذ القوم مدوا بأيديهم	إلى المجد مد إليه يدا
فنال الذي فوق أيديهم	من المجد ثم انتمى مُصعبدا
يحملة القوم ما عالهم	وإن كان أصغرهم مولدا
وإن ذكر المجد ألفيته	تأزر بالمجد ثم ارتدى

وقالت ترثيه أيضاً:

ألا يا صخر إن أبكيت عيني	فقد أضحككتني زمناً طويلاً
دفعت بك الخطوب وأنت حي	فمن ذا يدفع الخطب الجليلاً؟
إذا قبُح البكاء على قتيل	رأيت بكاءك الحسن الجميلاً

وقالت ترثي وتفتخر:

تعرّفتني الدهر نهساً وحزاً	وأوجعني الدهر قرعاً وغمزاً
وأفنى رجالي فبادوا معاً	فأصبح قلبي بهم مستفزاً

كأن لم يكونوا حمى يُتقى
 وخيل تكدس بالدارعين
 بيض الصفاح وسمر الرماح
 جززنا نواصي فرسانها
 ومن ظن ممن يلاقي الحروب
 نعف ونعرف حق القيرى
 ونلبس في الحرب نسج الحديد
 ومن قولها:

إن الزمان وما يفنى له عجب
 إن الجديدين في طول اختلافهما
 أبقى لنا ذنباً واستوصل الراس
 لا يفسدان ولكن يفسد الناس

١٦ - حسان بن ثابت

٥٥٣ - ٦٧٤ م

٦٦ ق هـ - ٥٤ هـ

نشأته وحياته:

هو أبو الوليد حسان بن ثابت الأنصاري، ولد بالمدينة ونشأ في الجاهلية، وعاش في الشعر، فكان يمدح المناذرة والغساسنة ويتقبل صلاتهم. ولكنه بالغ في مدح آل جفنة من ملوك غسان وأكثر من انتجاعهم فأغدقوا عليه العطايا، وملأوا يديه بالنعم، ولم ينكروه بعد إسلامه وتصرهم، فجاءته رسالتهم تترى بالهدايا من القسطنطينية. ولما هاجر رسول الله إلى المدينة أسلم حسان مع الأنصار وانقطع إلى مدحه والنصح عنه. وذلك أن الرسول حينما اشتد عليه أذى قريش بالهجاء قال لأصحابه: ما يمنع الذين نصرنا الله ورسوله بأسلحتهم أن ينصروه بالسنتهم؟ فقال حسان: أنا لها؟ وضرب بلسانه الطويل أرنبة أنفه وقال: والله ما يسرنى به مقول ما بين بصرى وصنعاء! والله لو وضعت على صخر لفلقه، أو على شعر لحلقه! فقال له النبي: كيف تهجوهم وأنا منهم؟ فقال: «أسلك منهم كما تسلك الشعرة من العجين» فقال: اهجهم ومعك روح القدس. فهجاهم فآلمهم وأبكمهم ووقعت كلماته

١٦ - انظر ترجمته في: فحولة الشعراء: ص ٢٠، ٣٦ - ٣٨، وطبقات فحول الشعراء: ص ١٧٩ - ١٨٣، والشعر والشعراء: ص ١٧٠ - ١٧٣، والأغاني: ١١/٣ - ١٨، ٤/١٣٤ - ١٧٠، ١٥/١٥٧ - ١٧٣، وسقط اللآلئ: ص ١٧١ - ١٧٢، وتهذيب ابن عساكر: ٤/١٢٥ - ١٤٠، ونكت الهميان: ص ١٣٤ - ١٣٨، انظر أيضاً: الأعلام، للزركلي ٢/١٨٨، ومعجم المؤلفين: ٣/١٩١ - ١٩٢ والمراجع: ٣/٣١ - ٣٨.

منهم موقع السهام في غسق الظلام، فاشتهر بذلك ذكره، وارتفع قدره، وعاش ما عاش موفور الكرامة مَكْفِيَّ الحاجة من بيت المال، حتى توفي سنة ٥٤ للهجرة بالغاً من العمر مائة وعشرين سنة، وقد كف بصره في أعقاب أيامه.

شعره:

كان حسان في الجاهلية شاعر أهل المُدن، وفي البعثة شاعر النبوة، وفي الإسلام شاعر اليمانية. وكان يغلب في شعره الفخر والحماسة والمدح والهجاء، وكلها أغراض تقتضي اللفظ الفخم والأسلوب القوي، فبدأ عليه أثر من الحوشية والوحشية ذهب بمجيء الإسلام. ثم سكنت عوامل الشعر في نفسه بسماحة الدين وموت الأحقاد وتقدم السن، فما كانت تتحرك إلا ذباً داعياً عن النبي ودفاعاً عن الأنصار من حين إلى حين. ولكن كثيراً من شعره في هذا الطور كان خشيباً، فكثرت به السقط، وقلت فيه الجزالة، وغلبت عليه السهولة، فرأى الأصمعي أن شعره لم يقوَ إلا في الشر، فلما جاء الإسلام بالخير ضعف. وهو في شعره يضارع ابن كلثوم في الفخر بقومه والمباهاة بنفسه، مع أنه كان جباناً مخلوع القلب.

نموذج من شعره:

قال في الهجاء:

مَغْلَغَلَةٌ فَقَدَ بَرَحَ الْخَفَاءِ	أَلَا أَبْلَغُ أَبَا سَفِيَانَ عَنِي
وَعَبْدَ الدَّارِ سَادَتَهَا الْإِمَاءِ	بَأَنَّ سَيُوفَنَا تَرَكْتِكَ عَبْدَا
وَعِنْدَ اللَّهِ فِي ذَاكَ الْجَزَاءِ	هَجُوتَ مُحَمَّدًا فَأَجَبْتَ عَنْهُ
فَشَرَكَمَا لَخَيْرِكَمَا الْفِدَاءِ	أَتَهْجُوهُ وَلَسْتَ لَهُ بِكَفَاءِ؟
سَبَابٌ أَوْ قِتَالٌ أَوْ هِجَاءِ	لَنَا فِي كُلِّ يَوْمٍ مِنْ مَعَدٍ
وَبَحْرِي لَا تَكْذِرُهُ الدَّلَاءِ	لِسَانِي صَارُمٌ لَا عَيْبَ فِيهِ
لِعَرْضِ مُحَمَّدٍ مِنْكُمْ وَقَاءِ	فِيَنَّ أَبِي وَوَالِدَتِي وَعَرْضِي

وأقبل على الرسول وفد من تميم يفاخره وعليهم الزبيرقان بن بدر، فلما أنشدوه أمر حسناً أن يحييهم فقال:

قَدْ بَيْنُوا سَنَةَ لِلنَّاسِ تُتَّبَعُ	إِنَّ الذُّوَابَ مِنْ فِهْرٍ وَإِخْوَتَهُمْ
أَوْ حَاوَلُوا النِّفْعَ فِي أَشْيَاعِهِمْ نَفَعُوا	قَوْمٌ إِذَا حَارَبُوا ضَرَبُوا عَدُوَّهُمْ
إِنَّ الْخَلَائِقَ فَاعْلَمْ شَرَّهَا الْبِدْعُ	سَجِيَّةٌ تَلِكُ فِيهِمْ غَيْرَ مُحَدَّثَةٍ
عِنْدَ الدِّفَاعِ وَلَا يُوْهُونَ مَا رَقَعُوا	لَا يَرْفَعُ النَّاسُ مَا أَوْهَتْ أَكْفُهُمْ
فَكُلٌّ سَبَقَ لِأَدْنَى سَبَقَهُمْ تَبَعُ	إِنْ كَانَ فِي النَّاسِ سَبَاقُونَ بَعْدَهُمْ
لَا يَطْبَعُونَ وَلَا يَزُرِي بِهِمْ طَمَعُ	أَعْفَةُ ذُكِرَتْ فِي الْوَحْيِ عَفْتُهُمْ
وَإِنْ أَصِيبُوا فَلَا خَوْرٌ وَلَا جَزَعُ	لَا يَفْخَرُونَ إِذَا نَالُوا عَدُوَّهُمْ

وقال يمدح جبلة بن الأيهم:

لله در عصابة نادمتهم
يمشون في الحلل المضاعف نسجها
والخالطون فقيروهم بغنيهم
أولاد جفنة حول قبر أبيهم
يسقون من ورد البريص عليهم
يسقون درياق الرحيق ولم تكن
بيض الوجوه كريمة أحسابهم
فلبثت أزماناً طويلاً فيهم

ومن قوله:

وإن امرأ يُمسي ويصحُ سالمًا
من الناس إلا ما جنى لسعيد

وقال أيضاً:

رُبَّ علم أضاعه عدم الما
ما أبالي أنب بالحزن تيسُ
ل وجهل غطى عليه النعيم
أم لحاني بظهر غيبٍ لثيم

١٧ - الحطيئة

٠٠٠ - ٦٦٥ م

٠٠٠ - ٤٥ هـ

نشأته وحياته:

هو أبو مليكة جرول بن أوس العيسي، وُلد في بني عيس دعيًا لا يُعرف له نسب، ولا يصله بالشرف سبب. فشب محرومًا مظلومًا مذمومًا لا يجد مددًا من أهله، ولا سنداً من قومه؛ فاضطر إلى الشعر يجلب به القوت ويدفع به العُدوان ويتنقم به لنفسه من بيئة ظلمته وطاردته. واصطلحت عليه عوامل الشر فحملت منه صورة للرديلة فكان كما وصفه الأصمعي سيء الخلق، ذنيء النفس، فاسد الدين، سئولاً، مُلحفاً، جشعاً، كثير الشر، قليل الخير، بخيلاً، دميماً، قصيراً، رث الهيئة، متدافع النسب في القبائل. وقد بلغ من لؤمه أن هجا أمه وامراته وبنيه حتى نفسه. فلما جاء الإسلام أسلم ثم ارتد ثم عاد مزعزع العقيدة، فلم يستطع

١٧ - انظر ترجمته في: العقدة: ص ٣٦٦، ٣٦٧، وفحولة الشعراء: ص ٣٦، ٤٨، ٤٩، ٥١، ٥٢، ٦٤، وطبقات فحول الشعراء: ص ٩٣-١٠١، والشعر والشعراء: ص ١٨٠-١٨٧، والأغاني: ١٥٧/٢-٢٠٢، والموشح للمرزباني، انظر: فهرسه، وسمط اللآليء: ص ٨٠،

الدين أن يرفع هذه النفس الوضيعة، ولا أن يُفل هذا المقول الجريء البذيء فَمَرَجَ لسانه في أعراض الناس واشتدت وقيعته فيهم. حتى الزبرقان بن بدر صاحب رسول الله وعامل عمر بن الخطاب لم يعصمه منه إكرامه جواره وإحسانه إليه، فمالاً بغيضَ بن عامر خصمه عليه، ومدح بني أنف الناقة وذم الزبرقان، فاستعدى عليه أمير المؤمنين عمر، فحيسه، واستشفع إليه بشعره فأطلقه وحذره هجاء الناس. فقال: إذن يموت عيالي جوعاً. هذا مكسي ومنه معاشي. فاشترى منه الخليفة أعراض المسلمين بثلاثة آلاف درهم. فكف حتى مات عمر ثم عاد إلى طبعه، ولبث على تلك الحال حتى أسكته الموت سنة ٥٩ هـ.

شعره:

الحطيئة شاعر متين الشعر، غزير البحر، رائق الأسلوب، شرود القافية، متصرف في فنون القول، من مديح وهجاء ونسب وفخر. ولولا خساسة طبعه، ودناءة طمعه، وقبح تبذله، لما فضله في المخضرمين أحد، فإنك لا تكاد تجد في شعره ما يكثر في شعر غيره من سخافة في النسيج، أو ركاكة في اللفظ، أو بُؤ في القافية، ولكن شرف الكلام بشرف قائله.

والحطيئة كزهير معدود في عبيد الشعر الذين رَووا فيه ونقحوه. وقد يؤثر عنه قوله.
«خير الشعر الحولي المنقح المحكك». وقلما تجد في هجائه على مرارته فحشا أو هجراً، حتى عمي على أمير المؤمنين عمر قوله في هجاء الزبرقان:
دَعِ المكارم لا ترحل لبغيتها واقعد فإنك أنت الطاعم الكاسي
فلم يفظن إلى موضع الهجاء فيه لدقته حتى دل عليه حسان.

نموذج من شعره:

قال يهجو الزبرقان بن بدر وقد زعم أنه أساء جواره فتحول عنه إلى بغيض:
والله ما معشرٌ لاموا أمراً جُنباً
ما كان ذنبٌ بغيض لا أبالكم
وقد مدحتكم عمداً لأرشدكم
لما بدا لي منكم عيب أنفسكم
أزمنت يأساً مبيناً من نوالكم
جاراً لقومٍ أطلوا هونَ منزله
ملوا قِراه وهرتَه كلابهُمُ
دع المكارم لا ترحل لبغيتها
من يفعل الخير لا يعدم جوازيه
في آل لأى بن شماس بأكياس
في بائس جاء يحدو آخر الناس!
كما يكون لكم متحي وإمراسي
ولم يكن لجروحي فيكم آسي
ولن يرى طارداً للحر كالياس
وغادروه مقيماً بين أرماس
وجرحوه بأنياب وأضراس
واقعد فإنك أنت الطاعم الكاسي
لا يذهب العرف بين الله والناس

وقال في المدح:

يسوسون أحلاماً بعيداً أناتها
أقلوا عليهم لا أبا لأبيكم
أولئك قوم إن بنوا أحسنوا البنأ
وإن كانت النعماء فيهم جزوا بها
مطاعين في الهيجا مكاشيف للدجى
ويعذلني أبناء سعد عليهم

وإن غضبوا جاء الخفيظة والجد
من اللوم أو سُدوا المكان الذي سدوا
وإن عاهدوا أوفوا وإن عقدوا شدوا
وإن أنعموا لا كدروها ولا كدوا
بنى لهم أبأؤهم وبنى الجد
وما قلت إلا بالذي علمت سعد

الشعراء الإسلاميون

١٨ - عمر بن أبي ربيعة

٦٤٤ - ٧١٢ م

٢٣ - ٩٣ هـ

نشأته وحياته:

هو أبو الخطاب عمر بن أبي ربيعة القرشي المخزومي . ولد بالمدينة ليلة مات عمر بن الخطاب، فكان يقال، أي حق رُفع، وأي باطل وضع! ثم شبل في نعمة أبيه عبد الله عامل الرسول والخلفاء الثلاثة من بعده. وكان سرياً غنياً، فتقلب عمر في أعطاف النعيم، ورتع في رياض الترف، وخلا ذُرعه من معالجة الأمور، ففرغ للشعر وقاله وهو صغير، فما أبه له أحد من فحوله كجرير والفرزدق. ومضى وهو يروض قوافيه ويستعطف أبيه حتى ارتاض له وأسلس. فقال جرير وقد سمع رائيته التي مطلعها:

أمن آل ناعم أنت غادٍ فمبكر
غداة غدٍ أم رائح فمُهَجَّر

«مال زال هذا القرشي يهذي حتى قال الشعر». وسلك ابن أبي ربيعة إلى الشعر طريقاً غير مألوفة ولا معروفة؛ فقصره على وصف النساء وتزاورهن ومداعبة بعضهن لبعض بلفظ رشيق وأسلوب مبتكر، فأولع به المغنون والظرفاء، وشغف به القيان والندماء، وكثر غناء الناس به وروايتهم له حتى ضج الغُبرُ والزهاد وقال ابن جريج: «ما دخل العواتق في خدورهن شيء أضر عليهن من شعر ابن أبي ربيعة». ولم يقف شره عند ذلك، وإنما كان

١٨ - انظر ترجمته في: المردفات: ص ٧٢-٧٣، وطبقات فحول الشعراء: ص ٥٣٠، والشعر والشعراء: ص ٣٤٨-٣٥٢ - والأغاني لأبي الفرج الأصفهاني: ١/٦١-٦١، والموشح: ص ٢٠١-٢٠٦، وخرزاة الأدب: ١/٢٣٨-٢٤٠، ومعجم المؤلفين: ٦/٢٩٤، وطبقات الشعراء: ص ٢٢٨، ٢٥٥.

يتعرض للحواج فيشيب بالعقائل والأميرات، ويصفهن طائفاتٍ مُحرمات، فزهدت كرائم الأسر في أداء الفريضة خشية منه. والوا الأمر يتعمدون هذا الجهل بالحلم رعاية لأسرته، وفخراً بشاعريته، وترقباً لتوبته. ولكن الخليفة عمر بن عبد العزيز لم يسعه الصبر على تماديه في المجون، وإمعانه في الجهالة، فنفاه إلى ذَهْلِك إحدى جزر البحر الأحمر بين بلاد اليمن والحيشة، وقد كانت منفي لبني أمية ولم يعد إلا بعد أن أقسم أنه يقلع عن صبوته، ويخلص إلى الله في توبته. ولعل بلوغه العُمَرين قد أعانه على البر بقسمه، فزهده وتنسك. ومن الناس من يقول إن عمر كان عفيفاً يصف ولا يقف، ويحوم ولا يرد؛ ويذكرون أنه لما مرض مرضه الأخير جزع أخوه الحارث عليه جزعاً شديداً، فقال له عمر: أحسبك إنما تجزع لما تظنه بي. والله ما أعلم أنني ركبت فاحشة قط فقال: ما كنت أشفق عليك إلا من ذلك، وقد سرّيت عني.

شعره:

لشعر ابن أبي ربيعة نَوطَةٌ في القلب، وروعة في النفس، لسهولته وأناقة لفظه، وحسن وصفه، وشدة أسره، وقرب فهمه، وملاءمته لهوى النفوس في نعت الجمال ووصف المرأة. وقد ساعده نسبه ونسبته وترفُّه على أن يقول في ذلك ما لم يجزؤ أحد على قوله: فسلك في الغزل مسلك القصص: يصف النساء ويحكي حديثهن ومداعبتهن ويذكر أمره معهن. فبهر الناس حتى حملهم على الإقرار لقريش بالشعر، وقد كانوا ينكرونه عليها. وبرع الشعراء حتى قال جرير: هذا والله الذي أرادته الشعراء فأخطأته وتعللت بوصف الديار! «. على أنك لا تجد في شعره ما تجد في شعر جميل وكثير من الشعور العميق والوصف الدقيق للحب، وإنما هو تبع نساء يسره أن يخالطهن ويحادثهن ويتجمل لهن دون أن يفتح قلبه لواحدة منهن؛ اللهم إلا أمره مع الثريا بنت علي ابن عبد الله بن الحارث فإنه يشبه أن يكون حباً.

نموذج من شعره:

قال من قصيدة في التشيب:

ولا الحبل موصول ولا أنت مقصر
أهذا المغيري الذي كان يذكرك؟
وعيشك أنساه إلى يوم أقبر
عن العهد والإنسان قد يتغير!
فيضحى وأما بالعشي فيخصر
به فلوات فهو أشعث اغبر
سوى ما يقي منه السرداء المحبر

نحنُ إلى نعم فلا الشمّل جامع
قفي فانظري أسماء هل تعرفينه
أهذا الذي أطريت نعتاً فلم أكن
لئن كان إياه لقد حال بعدنا
رأت رجلاً أما إذا الشمس عارضت
أخا سفر جَوَابَ أرض تقاذفت
قليلاً على ظهر المطية ظلُّه

ورِيَّانُ ملتف الحداثق أخضر
فليست لشيء آخر الليل تسهر
وقد يجشم الهول المحبب المغرر
ولي مجلس لولا الليانة أوعر
وإما ينال السيف ثأراً فيثأر
مصايح شُبِّت للعشاء وأنور
وروح رعيان ونوم سمر
حَبَاب وركني خيفة القوم أזור
وكادت بمهجور التحية تجهر
وأنت امرؤ ميسور أمرك أعسر
رقيباً وحولي من عدوك حضر
وكادت توالى نجمه تتغور
أتى زائراً والأمر للأمر يُقدر
أقلي عليك اللوم فالخطب أيسر
فلا سرُّنا يفشو ولا هو يظهر
ثلاثُ شُخوص . كاعبان ومُعصر
ألم تتق الأعداء والليل مقمر؟
أما تستحي أو ترعوي أو تفكر!
لكي يحسبوا أن الهوى حيث تنظر
اللطيف وريَّاهما الذي أتذكر

وأعجبها من عيشة ظلُّ غرفة
ووال كفاها كل شيء يههما
وليلة ذي دوران جشمي الكرى
وبت رقيباً للرفاق على شفا
فقلت أباديهم فإما أفوتهم
فلما فقدت الصوت منهم وأطفئت
وغاب قمير كنت أرجو غيوبه
ونفضت عني النوم أقبلت مِشِيَةَ ال
فحييت إذ فاجأتها فتوألَّت
وقالت وعضت بالبنان: فضحتني!
أرَيْتِكَ أن هُنَا عليك ألم تخف
فلما تقضى الليل إلا أقله
أشارت لأختيها أعينا على فتى
فأقبلتا فارتاعتا ثم قالتا:
يقوم فيمُشي بيننا متنكراً
فكان مجنبي دون من كنت أتقي
فلما أجزنا ساحة الحي قلن لي:
وقلن أهذا دأبك الدهر سادراً
إذا جئت فامنح طرف عينيك غيرنا
هنئاً لبعل العامرية نشرها

ومن قوله:

لثمت الذي ما بين عينيك والفم!
وليت حنوطي من مُشاشك والدم
هنا أو هنا في جنة أو جهنم

ألا ليت أني يوم تُقضى منيتي
وليت طهوري كان ريقك كله
ألا ليت أمَّ الفضل كانت قرينتي

وكتب إلى الثريا وهي باليمن:

كتاب مؤلّه كمد
بن بالحسرات منفرد
ق بين السُحر والكبد
ويمسح عينه بيد

كتبت إليك من بلدي
كئيب واكف العَيْنِي
يُورقه لهيب الشو
فيمسك قلبه بيد

١٩ - الأخطل^(١)

٦٤٠ - ٧١٢ م

١٩ - ٩٥ هـ

نشأته وحياته :

هو أبو مالك غِيَاث بن غوث التغلبي : نشأ بالجزيرة الفراتية في قومه بني تغلب على النصرانية كأكثر أهل هذه القبيلة . وفجع في أمه وهو صغير ، فربته زوجة أبيه فأساءت تربيته . فشب سليط اللسان خبيث النية مدمناً للخمر وبدت بواكير شعره منذ الحداثة ، فهاجبى كعب بن جُعيل شاعر تغلب فأخمله وهباً ذكره سير . ولما طلب يزيد بن معاوية وهو ولي العهد من كعب بن جعيل أن يهجو الأنصار لتعرض عبد الرحمن بن حسان لأخته في شعره ، خشي الأنصار ودله على الأخطل رجاة أن يفتكوبه ، فكان ذلك سبباً في صعود نجمه وذيوع اسمه . فإنه اتصل بيزيد وهجا الأنصار فغضبوا ، وشكوه إلى معاوية فحكّمهم فيه ، فطلبوا قطع لسانه . ولكن يزيد ترضاهم فعفوا عنه . وعرف له خلفاء بني أمية هذه اليد فقدموه وأكرموه ، وبخاصة عبد الملك بن مروان ، لأنه استعان به على قبائل قيس وشعرائها لممالأتهم أعداءه من آل الزبير ، فسَهّل عليه حجابيه ، ووطأ له جنابه وأغدق عليه عطاءه ، وسماه شاعر الخليفة : وبلغ من دالة الأخطل على عبد الملك أنه كان يجيئه وعليه جبة خز وفي عنقه صليب ذهب ولحيته تنفض خمراً فيدخل عليه بغير إذن . أما دخوله في المهاجة بين جرير والفرزدق ، فسيبه أنه عرّض بتفضيل هذا حينما سئل أيهما أشعر . فلما بلغت حكومته جريراً غضب وهجا الأخطل بأبيات منها :

يادا الغباوة إن بشرأ قد قضى
ألا تجوز حكومة النشوان
فرد عليه الأخطل في شيء من الضعف لتقدم سنه وفطور طبعه . وقد اعترف بذلك جرير في قوله لابنه : أدركته وله ناب واحد ، ولو أدركته وله نابان لأكلني » وما زال الأخطل أثيراً عند بني أمية حتى أقصاه عمر بن عبد العزيز .

وكان يعيش حيناً في دمشق وحيناً في بلاده الجزيرة ، وتوفي في أول خلافة الوليد سنة ٩٥ بالغاً من العمر سبعين سنة .

١٩ - انظر ترجمته في : فحولة الشعراء : ص ٢٣ ، ٢٤ ، ٣٧ ، والشعر والشعراء : ص ٣٠١ - ٣١٢ ، والمؤتلف والمختلف : ص ٢١ ، والموشح ص ١٣٢ - ١٤٢ وسمط اللآليء : ص ٤٤ - ٤٥ ، الأعلام ، للزركلي ٣١٨/٥ ومعجم المؤلفين : ٣٢/٨ - ٤٣ ، والمراجع : ١٣/٢ - ١٨ ، بروكلمان الأصل 52 - 1,49 ، والملحق 84 - 1,83 .

(١) يقال لهؤلاء أيضاً عليا هوازن ؛ وهم سعد بن بكر ونصر بن معاوية وثقيف : وفيهم يقول أبو عمرو بن العلاء ، أفصح العرب عليا هوازن وسفلى تميم .

شعره:

الأخطل أحد الثلاثة السابقين المتقدمين في هذا العصر، وهم جرير والفرزدق وهو. وقد اتفق الناس على أنهم أجود معاصريهم شعراً وأسيرهم ذكراً، ولكن اختلفوا في أيهم أشعر إخوته. والحق أن لكل منهم مزية وميزة.

فالأخطل ممتاز بإجادة المدح، ونعت الخمر، وقلة البذاء في الهجاء، وسلامة قصائده الطوال من اللغظ والسَّقط، ومرود طبعه على الروية والتنقيح: فقد يلبث في مدائحه سنة. وربما بلغت قصيدته تسعين بيتاً فيقتصر منها بعد التهذيب على الثلث. وأبت عليه طبيعته المرححة أن يقول في الرثاء؛ فلم يؤثر عنه منه إلا أربعة أبيات في رثاء يزيد بن معاوية، وهو سبب شهرته وأصل نعمته. وكان فخوراً بنفسه، لا يرى فوقه أحداً إلا الأعشى، ولذلك كان يجري على أسلوبه.

نموذج من شعره:

قال يمدح عبد الملك بن مروان:

أبدى النواجذ يوماً عارم ذكر
خليفة الله يُستسقى به المطر
ما إن يوازى بأعلى نبتها الشجر
إذا المَّت بهم مكروهة صبروا
ولا يُبَيِّنُ في عيدانهم خور
وأوسع الناس أحلاماً إذا قدروا
قلّ الطعام على العافين أو قُتروا
تمت فلا منة فيها ولا كدر

نفسي فداء أمير المؤمنين إذا
الخائض الغمرة الميمون طائره
في نبعة من قريش يعصمون بها
حُشدٌ على الحق عيافو الخنا أنف
لا يستقل ذوو الأضغان حربهم
شُمسُ العداوة حتى يستقأذ لهم
هم الذين يبارون الرياح إذا
بني أمية نُعماكم مجللة

وقال يهجو الأنصار:

كالجحش بين حمارة وحمار
بالجزع بين صُلَيْصِلٍ وصرار
حمرراً عُيونُهُم من المسطار
وخذوا مساحيكم بني النجار
واللؤم تحت عمائم الأنصار

وإذا نسبت ابن الفريعة خلته
لعن الإله من اليهود عصابةً
قوم إذا هدر العصير رأيتهم
خلوا المكارم لستم من أهلها
ذهبت قريش بالمفاخر كلها

ومن قوله:

طول الحياة يزيد غير خبال
ذخراً يكون كصالح الأعمال

والناس همهم الحياة ولا أرى
وإذا إفتقرت إلى الذخائر لم تجد

٢٠ - الفرزدق

٦٣٣ - ٧٠٦ م

١٢ - ١١٠ هـ

نشأته وحياته :

هو أبو فراس همام بن غالب التميمي . كانت ولادته ونشأته بالبصرة ، فدرج في عشب الأدب وشب في ربوع الفصاحة . وأخذ أبوه يرويه الشعر ويعلمه القريض حتى تفتقت عنه قريحته ، وانطلق به لسانه ؛ فقدمه ذات يوم إلى أمير المؤمنين عليّ بعد واقعة الجمل مفتخراً بجودة شعره على صغره . فقال عليه السلام أقرئه القرآن فهو خير له . فارتسمت هذه الكلمة في ذهن الفرزدق حتى كبر ، فصمم على حفظ القرآن ، فقيده نفسه وأقسم ألا يفك حتى يحفظه ؛ وبرّ بيمينه . ثم اتصل بولاية المصريين فنالهم بالمدح والهجاء ، وأجازوه بالإدناء والإقصاء . ومدح خلفاء الأمويين بالشام ولا سيما عبد الملك فوصلوه ولكنه لم ينفق عندهم لتشيعه لآل عليّ . وكان الفرزدق معاصراً لجريير وكان بينهما تنافس وتحاسد . فما كاد يحتدم الهجاء بين جريير وبين شاعر آخر اسمه البعيث حتى وقف الفرزدق في صف البعيث وآزره . فغاض ذلك جريراً فهجا الفرزدق ، ورد عليه هذا ، فاستطار بينهما الهجاء عشر سنين ، ففتق ذهنيهما ، وأحدّ لسانيهما ، ونمى فيهما قوة المبادهة والمجادلة ، وصدق النظر . وانشعب الناس في أمرهما شعبتين ، تناصر كل منهما أحد الشعارين . وجعل أحد أشياع الفرزدق أربعة آلاف درهم وفرساً لمن يغلبه على جريير ، وكان الفرزدق فاجراً ، فاحش النطق ، خبيث الهجاء ، ضعيف الدين ، قاذفاً للمحسّنات ، يأوي إلى ركن شديد من شرف حسبه ، وكرم نسبه . فاستعان بكل رذائله وفضائله على جريير فما هزمه ولا أسقطه .

ثم كانت له مواقف محمودة في الذود عن آل عليّ تجلت فيها صراحته وشجاعته ، كموقفه يوم التقى بهشام بن عبد الملك في الحج ، وسمعه يقول حينما رأى علي بن الحسين في موضع التجلة من الناس : (من هذا؟) تجاهلاً لأمره ، وغضاً من قدره . فشق ذلك على الفرزدق ، فأجابه بقصيدته التي مطلعها :

هذا الذي تعرف البطحاء وطأته والبيت يعرفه والحِجْلُ والحرم

٢٠ - انظر ترجمته في : النقاظ : لأبي عبيدة ، انظر فهرسه ، وفحولة الشعراء : ص ٢٣ ، ٢٤ ، ٣٨ ، ٣٩ ، وطبقات فحول الشعراء : ص ٢٥٠ ، ٢٥١ - ٣١٤ ، وأسماء المغتالين : ص ١٨٢ - ١٨٣ والشعر والشعراء : ص ٢٨٩ - ٣٠١ ، والمؤتلف والمختلف : ص ١٦٦ ، والأغاني : ٣٢٤/٩ - ٣٤٥ ، ٢٧٦/٢١ - ٤٠٣ ، وسمط اللآلي : ص ٤٤ ، وإرشاد الأريب : ٢٥٧/٧ - ٢٦١ ، ووفيات الأعيان : ٢٥٩/٢ - ٢٦٧ ، وخزانة الأدب : ١٠٥/١ - ١٠٨ ، ومعجم المؤلفين : ١٥٢/١٣ - ١٥٣ .

فحسبه هشام ثم أطلقه بعد هجائه إياه. وتوفي الفرزدق بالبصرة سنة ١١٠ هـ وقد شارف المائة.

شعره:

كان الفرزدق فخوراً بأصله مدلاً بأهله، ولوعاً بتعداد مآثر آبائه حتى أمام الخلفاء، فغلب شعره في الفخر؛ ولغة الفخر تقتضي الألفاظ الضخمة، والأساليب الفخمة، والكلم الغریت، وذكر أيام العرب وأنسابهم، واحتذاء البادين في أساليبهم. لذلك أعجب به الرواة، وفضلة النحاة، وقالوا: لولا شعر الفرزدق لذهب ثلث العربية. على أنه طالما تألم من صلابه شعره؛ وتمنى أن تكون له رقة جرير لعُهره، ولجرير صلابته لظهره. وفي ذلك تأييد منه لحكم الأخطل عليهما بقوله: الفرزدق ينحت من صخر، وجرير يغرف من بحر.

والفرزدق بعد ذلك في الهجاء مقذع، وفي الوصف مبدع، وفي المديح وسط، وفي الرثاء متخلف.

نموذج من شعره:

إذا اغبرَّ آفاقَ السماء وكشَّفت
وأصبح مُبَيَّضُ الصقيع كأنه
ترى جارنا فيه بخير وإن جنى
وكننا إذا نامت كليب عن القرى
لنا العزة القعساء والعدد الذي
ترى الناس إن سرنا يسيرون خلفنا
وإنك إذ تسعى لتدرك شأونا

وقال أيضاً:

ومستمنح طاوى المصير كأنما
دعوت بحمرء الفروع كأنها
وإني سفيه النار للمبتغي القرى
إذا مت فابكيني بما أنا أهله
وكم قائل مات الفرزدق والندى!

ومن قوله في مدح علي بن الحسين:
هذا الذي تعرف البطحاء وطأته
هذا ابن خير عباد الله كلهم

والبيت يعرفه والحجل والحرم
هذا التقي النقي الطاهر العلم

العرب تعرف من أنكرت والعجم
إلى مكارم هذا ينتهي الكرم
فما يكلم إلا حين يبتسم
ركن الحطيم إذا ما جاء يستلم
كالشمس ينجاب عن إشراقها القتم
كفر وقربهم منجى ومعتصم

كأن أباه نهل أو مجاشع

ضربناه حتى تستقيم الأخادع

بخير وقد أعيأ ربيعاً كبارها

وقد يملأ القطر الإناء فيفعم

وتخالنا جنًا إذا ما نجهل

ويهرب منا جهده كل ظالم

وليس قولك (من هذا) بضائره
إذا رآته قريش قال قائلها
يُغْضِي حياءً وَيُغْضِي من مهابته
يكاد يمسكه عرفان راحته
ينشق نور الهدى عن نور غرته
من معشر حبهم دين وبغضهم
ومن آياته السائرة قوله:

فيا عجباً حتى كليبٌ تُسبني
وقوله:

وكنا إذا الجبار صعّر خده
وقوله:

تُرْجِي ربيع أن يجيء صغارها
وقوله:

قوارص تأتيني وتحقرونها
وقوله:

أحلامنا تزن الجبال رزانه
وقوله:

ترى كل مظلوم إلينا قراره

٢١ - جرير (١)

٦٤٠ - ٧٢٨ م

٢٨ - ١١٠ هـ

نشأته وحياته:

هو أبو حرزة جرير بن عطية الخطفي التميمي. ولد باليمامة لسبعة أشهر، ونشأ

٢١ - انظر ترجمته في: فحولة الشعراء: ص ٢٣، ٢٤، ٣٨، ٣٩، ٤٥، ٦٥، وطبقات فحول الشعراء:

ص ٣١٥ - ٣٨٦، والمؤتلف والمختلف: ص ٧١ والموشح: ص ١١٨ - ١٣٢، وسمط اللاليء:

ص ٢٩٢ - ٢٩٣ ووفيات الأعيان: ١/١٢٧ - ١٣٠، ومعاهد التنصيب: ٢/٢٦٢ - ٢٦٩ وخزانة

الأدب: ١/٣٦ - ٣٧، ومعجم المؤلفين: ٣/١٢٩ - ١٣٠ والمراجع: ٢/١٤٨ - ١٥٦.

(١) راجع صفحة ١٢٠، ١٢٧، ١٢٨، ١٢٩، ١٣٠، ١٣١، ١٣٢.

بالبادية، فشبَّ فصيح اللسان صحيح الوجدان مطبوع القريحة على الشعر. ولما آنس في نفسه القدرة على قرضه، والجرأة على عرضه، ورد البصرة موطن الفرزدق ينتجع الكرماء، ويمتدح الكبراء، ويمتار لأهله. فازدهاه ما رأى على الفرزدق من حُلل النعمة ومظاهر الجاه بفضل الشعر، وهو تميمي مثله، فدب في قلبه ديبب الحسد له، واشتهى أن يساويه في حسن حاله، ووفرة ماله.

فتولدت من تنافسهما وتزاحمها أسباب المهاجاة بينهما. وأراد جرير أن يرامي قرنه عن كَنَب، فترك البادية واستوطن البصرة وغشى المربرد. ودخل في كنف الحجاج فحسن موقعه عنده، وطارت مدائحه فيه، حتى بلغت عبد الملك فَنَفْسِه على الحجاج. وأحس الوالي رغبة الخليفة فأوفده مع ابنه محمد إلى دمشق، فلما دخل جرير على عبد الملك استأذنه فأبى، وقال له بلهجة العاتب الحنق: إنما أنت للحجاج! فما زال يتوسل إليه، ويتحمل بالناس عليه حتى أشدده قصيدته التي مطلعها:

أصبحوا أم فؤادك غير صاح عشيّة همّ صحبتك بالرواح؟

فلما وصل إلى قوله منها:

ألستم خيرَ من ركب المطايا وأندى العالمين بطون راح؟

تبسم عبد الملك وقال: كذلك نحن وما زلنا كذلك. وأجازه بمائة لقحة وثمانية رعاء، وأصبح جرير بعد هذه القصيدة وهمود الأخطل أثر الشعراء عند الخلفاء ولا سيما عمر ابن عبد العزيز، ولكن زلفاه لدى القصر أشعلت نار الغيرة في قلوب مناظره، فشَنوا عليه حرب الهجاء وأزّت هذه الحرب أعراض السياسة، وتحريض الفرزدق، وضيق خلق جرير، وحب الناس لمشاهد الخصومة؛ فنصب لجرير من هؤلاء الأقران ثمانون شاعراً ظهر عليهم جميعاً إلا الفرزدق والأخطل فإنهما نازعا الغلبة وثبتا له. ودامت هذه المهاجاة سجلاً بينهم حتى توفي الأخطل، ففرغ جرير للفرزدق وكانت بينهما النقائص المشهورة التي لهج بها الناس، وشغل بها الشعراء، ثم بدا للفرزدق أن يكف، فكف وتنسك حتى مات. فمضى جرير لسيله بعده ببضعة أشهر ودفن باليمامة سنة ١١٠ هـ.

شعره:

يرى جرير من خبث الأخطل وسُكره، ومن جفاء الفرزدق وفجره، وتجميل بصفاء الطبع، ورقة الشعور، ونقاء الجيب، وصحة الدين، وحسن الخلق، فظهر أثر ذلك كله في شعره، فامتاز بطلاوة الأسلوب، وحلاوة الغزل، ومرارة الهجاء، وإجادة الرثاء، وحسن التصرف في جميع فنون الشعر. فكان بذلك أظهر في سماء الشعر، وأقرب إلى صفة

الشاعر، وأكثر أشياعاً من الأخطل والفرزدق. فإن الأول لم يجد إلا في المدح والهجاء والخمر، والثاني لم ينبغ إلا في الفخر.

نموذج من شعره:

قال يهجو الفرزدق:

فجاءت بوزار قصير القوادم
ليرقى إلى جاراته بالسلالم
وقصرت عن باع العلي والمكارم
مداخل رجس بالخبيثات عالم
ظهوراً لما بين المصلي وراقم

لقد ولدت أم الفرزدق مقرفاً
بوصل حبله إذا جن ليله
دللت تنزي من ثمانين قامة
هو الرجس يا أهل المدينة فاحذروا
لقد كان إخراج الفرزدق عنكم

ومن جيد قوله فيها:

إلى الغر من أهل البطاح الأكارم
ولم يرهبوا في الله لومة لائم
ويضرب كبش الجحفل المتراكم؟
وريش الذنابي تابع للقوادم
وتخزيك يا ابن القين أيام دارم
ولا رق عظمي مضروس العواجم

تعالوا نحاكمكم وفي الحق مقنع
فإن قريش الحق لم تتبع الهوى
أذكركم بالله من ينهل القنا
وكتتم لنا الأتباع في كل موقف
إذا عُدت الأيام أخزيت دارما
وما زادني بعد المدى نقض مرة

ومن قوله يمدح عمر بن عبد العزيز:

من الخليفة ما نرجو من المطر
كما أتى ربّه موسى على قدر
أم تكفي بالذي بلغت من خبري
قد طال بعدك إصعادي ومُحدري
ولا وجود لنا بادٍ على حضر
ومن يتيم ضعيف الصوت والبصر
مساً من الجن أو رزءاً من البشر
كالفرخ في العش لم ينهض ولم يطر

إننا لنرجو إذا ما الغيث أخلفنا
نال الخلافة إذ كانت له قدراً
أذكر الجهد والبلوى التي نزلت
مازلت بعدك في دار تعرّفتني
لا ينفع الحاضر المجهود بآديننا
كم بالمواسم من شعشاء أرملة
يدعوك دعوة ملهوف كأن به
ممن يعدك تكفي فقد والده

ومن أبياته التي تفرد بها قوله في الغزل:

قتلنا ثم لم يحيين قتلنا
وهن أضعف خلق الله إنساناً

إن العيون التي في طرفها حور
يصرعن ذا اللب حتى لا حراك به

وقوله في الفخر:

إذا غضبت عليك بنو تميم حسبت الناس كلهم غضابا

وفي الهجاء:

فغض الطرف إنك من نمير فلا كعباً بلغت ولا كلابا

وفي التهكم:

زعم الفرزدق أن سيقتل مربعاً أبشر بطول سلامة يا مربع؟

ومن جيد فخره قوله:

إن الذي حرم المكارم تغلبا جعل الخلافة والنبوة فينا
مُضْرُّ أبي وأبوالملوك، فهل لكم يا خزر تغلب من أب كأبيننا؟
هذا ابن عمي في دمشق خليفة لو شئت ساقكم إليّ قطينا

ويقال إن عبد الملك لما بلغته هذه الأبيات قال: ما زاد ابن المراغة على أن جعلني
شُرْطِيًّا. أما إنه لو قال: لو شاء ساقكم إليّ قطيناً، لسقتهم إليه!

٢٢ - الطَّرْمَاحُ بن حَكِيم

٧٤٣ - ١٠٠٠ م

١٠٠٠ - ١٠٠٠ هـ

نشأته وحياته:

نشأ الطَّرْمَاحُ بن حَكِيم الطَّائِيّ بدمشق في النصف الأخير من القرن الأول. وظل في الشام غفلاً من الأغفال حتى بلغ حد الرجال فانتقل إلى الكوفة مع مَنْ وردها من جنود بني أمية، ونزل في تيم اللات بن ثعلبة. وكان فيهم شيخ من الشراة الأزارقة^(١) له سمت وهيئة، فكان يجالسه ويلابسه؛ فوقفه على عقيدته ودعاه إلى طريقته، فقبلها واعتقدتها أشد اعتقاد وأصحها حتى لقي الله عليها. ثم عرف الكميّ بن زيد الأسدي، فتساهما الوفاء، وتقاسما المحبة، وتمكنت بينهما الألفة على اختلاف ما بينهما في النسب والمذهب والبلد. فالطرمّاح قحطاني شامي خارجي، والكميت عدناني كوفي شيعي. وقد سأل بعض الناس الكميّ عن سر هذا

٢٢ - انظر ترجمته في: الشعر والشعراء: ص ٣٧١ - ٣٧٤، والمؤتلف والمختلف: ص ١٤٨، والمكاشرة ص ٣٩ وإرشاد الأريب: ٣٦١/٢، ٨/٧، وتهذيب ابن عساكر: ٥٢/٧ - ٥٣ وخزانة الأدب: ٤١٨/٣، ومعجم المؤلفين: ٤٠/٥ - ٤١، والمراجع: ٢٢٧/٣ - ٢٣٠.

(١) وهي فرقة من فرق الخوارج.

الاتفاق مع شدة هذا الاختلاف فأجاب: «إنما اتفقنا على بغض العامة» وهذا الجواب تصديق أو تطبيق للمثل اللاتيني القائل: «كل الشعراء أرسقراطيون». وعاش الطرماع عيش الشعراء على فضل الأغنياء يمدح من يعطيه ويهجو من يمنعه، وهو مع ذلك عزيز النفس، شريف الطبع، بعيد الهمة لم يقفه المال على حبه إياه مواقف الضراعة والهوان. دخل هو والكميت على مخلد بن يزيد المهلبي، فجلس لهما ودعاهما، فتقدم الطرماع لينشد، فقال له: أنشدنا قائماً. فقال: «كلا والله: ما قدرُ الشعر أن أقوم له فيخط مني بمقامي وأحط منه بضراعتي، وهو عمود الفخر، وبيت الذكر لمأثر العرب» فقيل له: تنحّ ودع الكميت، فأنشد الكميت قائماً فأمر له بخمسين ألف درهم، فلما خرج شاطرها الطرماع وقال له: أنت أبا ضبيبة أبعد همة، وأنا ألطف حيلة.

وكان الطرماع مع اعتداد بأمره وإعظامه لقدره، معجباً بشعره فخوراً به. سمع هو وصاحبه الكميت أبيتاً من ذي الرُّمة، وكان معاصراً لهما، فضرب الكميت صدر الطرماع وقال: «هذا والله الديباج لا نسجي ولا نسجك الكرايبس» فقال الطرماع: «لن أقول ذلك ولو أقررت بجودته».

وكال الطرماع رغب العين يشره إلى المال، ويتشوف إلى الغنى ويقول:
 أمخترمي ريب المنون ولم أنل من المال ما أعصي به وأطيع؟
 فدأب في سبيله وجدّ في تحصيله، ودعا الله ألا يموت حتف أنفه بل يموت ميتة الجاهدين أو المجاهدين، فيكون شهيد الدنيا أو شهيد الدين.

وفي ذلك قوله:

وإني لمقتاد جوادي وقاذف
 لأكسب مالاً أو أوول إلى غنى
 فيارب إن حانت وفاتي فلا تكن
 ولكن قبري بطنٌ نسر مقيله
 وأمسي شهيداً ثاوباً في عصابة
 فوارس من شيبان ألف بينهم
 إذا فارقوا دنياهمو فارقوا الأذى

ولكن الله لم يستجب دعاءه فمات على فرش وحمل في نعش.

شعره:

نشأ الطرماع نشأة حضرية، فما عرف البادية ولا لابس البدو. ولكنه عاش في الكوفة وألمّ بالبصرة فسمع الرواة والنحاة فيهما يؤثران الأدب الجاهلي ويقدمون الشعر البدوي،

لأنه موضع الشاهد، وموطن الغريب، فولد ذلك فيه وفي الكميت حب الغريب وتكلف الحوشي؛ فكان يتسقطه من الأعراب ويتلقطه من الرُّجَّاز، ويستعمله فلا يقع به في مكانه. قال العجاج: كان الطرماح والكميت يسألاني عن الغريب فأخبرهما به ثم أراه في شعرهما وقد وضعاه في غير موضعه. فقيل له: ولم ذلك؟ فقال: لأنهما قرويان يصفان ما لم يريا. ومن ثم كان الأصمعي وأبو عبيدة يعيبان شعرهما في الإسلاميين، كما عابا شعر عدي بن زيد وأمّية بن أبي الصلت في الجاهليين. وإنك لترى أثر هذا الميل ظاهراً في شعره، فبينما يأتيك بالأبيات الرقيقة الأنيقة العذبة، إذا به يرميك بالأبيات الغريبة البعيدة الفجّة، فيشوه شعره ويكدر بحره. وقد سئل ابن الأعرابي عن ثمانى عشرة مسألة من شعر الطرماح فلم يعرف منها واحدة! على أنه معدود في الفحول من الشعراء الإسلاميين، وله مذهب معروف في الهجاء يركب له المبالغة في تصغير شأن المهجور وتحقير أمره فكأنما يوحى إليه. وكان الكميت وهو معاصره ومعاشره يُقرُّ له بالنبوغ في نواح كثيرة من نواحي الفضل، فقد أنشد يوماً قول الطرماح:

إذا قُبِضت نفس الطرماح أخلقتُ عرى المجد واسترخى عنان القصائد

فقال: إي والله! وعنان الخطابة والروية والفصاحة والشجاعة.

نموذج من شعره:

الطرماح من أصحاب الملحمت، وملحمته تريك التفاوت بين السهل الطبيعي والوعر المتكلف، ومطلعها:

ودعاني هوى العيون المراض
ت رضاً بالتقي وذو البر راضي
ت أخوا عنجهيّة واعتراض
ثم ارعويت بعد البياض
قلّ في شطّ نهران اغتماضي
فَتَطَرَّبْتُ لِلصبا ثم أوقف
وأراني المليك رشدي وقد كد
غير ماريبة سوى ريق الغرة (م)

ومنها:

لعين تنوض كلّ مناض
حيث تجثّ رجله في أباض
ة أمارت بالبول ماء الكراض
عن زحاليّف صِفْصِف ذي دحاض
وجرى بالذي أخاف من البين (م)
صَيِدْجِي الضحى كأن نَساه
سوف تدنيك من لميس سَبَبْتَا
فهي قوداء أنْفَجَتْ عضداها

ويقول في آخرها:

ر إذا الخوف مال بالأخفاض
مرائب للثأي المنهاض
إننا معشر شمائلنا الصب
نُصْرُ للذليل في ندوة الحي

لم يَفْتَنَّا بِالْوَتْرِ قَوْمٌ وَلِلضَّمِّ
فلسي الناس إن جهلت وإن شد

ومن قوله:

لقد زادني حبا لنفسي أنني
وأني شقي بالثام ولا ترى

ومن قوله يهجو بني تميم:

لو حان ورد تميم ثم قيل لها
أو أنزل الله وحيًا أن يعذبها
لا عز نصر امرئ أضحي له فرس
لو كان يخفي على الرحمن خافية
حوض الرسول عليه الأزد لم تزد
إن لم تعد لقتال الأزد لم تعد
على تميم يريد النصر من أحد
من خلفه خفيت عنه بنو أسد

النثر

الخطابة:

كان ظهور الإسلام بالدعوة العظمى من أهم الأسباب التي بلغت بالخطابة غاية كمالها، وجعلت الأمر في أيدي رجالها. فإن الدعوة إلى الدين، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وقمع الفتن، وردع البدع، وتحميس الجند، كل أولئك من أغراض الخطابة. وكان لها من آي القرآن وحججه معين لا ينضب، ومدد لا ينفذ. ولما اختلف المسلمون بعد مقتل عثمان وتعددت الفرق رقت الخطابة رقتا عظيماً، لاعتماد كل حزب عليها في نشر نحلته، وتأييد دعوته.

وأهم ما يميزها في هذا العصر عذوبة ألفاظها، ومتانة أسلوبها، وقوة تأثيرها واقتباسها من القرآن وانتهاجها منهجه في الإرشاد والإقناع، وابتدائها بحمد الله والصلاة على رسوله.

وظل العرب على ما ألفوه في الجاهلية من لوث العمامة واتخاذ المخصرة والوقوف على نشر من الأرض، والخطبة من قيام، إلا الوليد بن عبد الملك فإنه خطب وهو جالس.

وجملة القول أن ليس في عصور اللغة عصر زها بالخطابة وحفل بالخطباء كهذا العصر لانصراف العرب عن الشعر إليها، واعتمادهم في الدين والسياسة عليها.

أشهر خطبائه الرسول ﷺ، والخالفاء الراشدون، وسحبان وائل وزبيد بن أبيه، والحجاج بن يوسف، وقطرب بن الفجاءة.

٢٣ - محمد رسول الله ﷺ

٥٧١ - ٦٣٣ م

٥٣ ق هـ - ١١ هـ

مولده ونشأته وبعثته:

وُلد سيدنا محمد بن عبد المطلب بن هاشم القرشي في مكة صباح اليوم التاسع أو الثاني عشر من شهر ربيع الأول، لأول عام من حادثة الفيل، أو اليوم العشرين من شهر أبريل سنة ٥٧١ للميلاد، في مهد اليتيم والعُذم، فقد استوفى أبوه ظمءَ حياته حين كان هو جنيناً. ولم يكد يحبو للسادسة من عمره حتى استأثر الله بأمه، فحضنه جده سنتين حضانة إعزاز ومعجة. ثم أوصى به قبل وفاته إلى أبي طالب شقيق أبيه، فكفله على رقة حاله وكثرة عياله. ولو جرى الأمر على منهاج الطبيعة لشب محمد على أخلاق اليتامى وعادِ الجاهلية، ولكن الله تولى تأديبه وتهذيبه، فكماله بالعقل الرجيح، والخلق السجيج، والنفس الرضية، والحياة اليقور، والحلم الرفيق، والصبر المطمئن، والصفح الجميل، واللسان الصادق، والذمة الوثيقة، والجأش القوي، والفؤاد الجميع، ثم طهره من أرجاس الوثنية، فلم يشرب الخمر، ولم يأكل مما ذبح على النُصب، ولم يشهد للأوثان عيداً ولا حفلاً، وسمت نفسه الكبيرة على حدائثها إلى ابتغاء الرزق بحيلته وكده، فتصرف في التجارة على عادة قومه حاسراً لها عن ساقه ويده. وشاعت له في الناس فضائل الصدق والحنق والأمانة، فطلبت إليه السيدة خديجة بنت خويلد إحدى عقائل القرشيين وغنياتهم أن يتجر في مالها، فسافر إلى الشام مع خادمها ميسرة فنجحت سفرته وربحت صفقته. ثم ارتد إلى مكة فهزَم من عطف السيدة ما رأت من جزالة الرُّبِح وأمانة الرابح فخطبته إلى نفسها، وهي في سن الأربعين وهو في حدود الخامسة والعشرين، فرضي زواجها، وخطبها عمه إلى عمها، وكان لها من جليل الأثر في الإسلام سهم ربيع، ثم مضى الرسول يضرب في الآفاق إلى الأسواق يكسب لأهله، وينمي ثروة زوجته؛ ونفسه عازقة عن مُتَع الحياة، صادقة عن لذاعة العيش، فلم يطمع في ثراء ولم يطمح إلى منصب، بل كان يُخلي ذرعه من صوارف الدنيا اللبالي الطوال فيعتكف في غار حراء يتعبد ويتأمل، ويتجه بروحه الصافي اللطيف إلى الملأ الأعلى حتى أوحى إليه

٢٣ - انظر ترجمته في: كتب السيرة والتاريخ والحديث وغيرها. مثل: سيرة ابن هشام، لابن إسحاق، والروض الأنف، للسهيلى، وعيون الأثر، لابن سيد الناس، وإنسان العيون، المعروف بالسيرة الحلية، وسبل الهدى والرشاد، المعروف بالسيرة الشامية، وتاريخ الإسلام للذهبي، والطبقات الكبرى، لابن سعد، والكامل في التاريخ، لابن الأثير، والبداية والنهاية، لابن كثير، وتاريخ الأمم والملوك، للطبري، ومشاهير ابن حبان والاكثفاء وغيرهم كثير.

في هذا الغار بالرسالة والمعجزة وعمره يومئذ أربعون سنة قمرية وستة أشهر. فَتَقَلَّبَ إِلَى زوجه مضطرباً فطمأنته وقالت له: والذي نفس خديجة بيده لا يخرُيك اللهُ أبداً إنك لتصل الرحم، وتصدق الحديث، وتؤدي الأمانة، وتحمل الكُلَّ، وتقري الضيف، وتعين على نوابِ الحق. وفتَر الوحي مدة، ثم نزل على قلبه الروح الأمين بقوله اللهُ تعالى: ﴿يَأَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ * قُمْ فَأَنْذِرْ * وَرَبُّكَ فَكْبِيرٌ﴾^(١) فقام بأعباء الرِّبِّ ماله والتبليغ ثلاث حجج في طي الخفاء. ثم أمر أن يصدع بالدعوة، فعالَن بها قريشاً وسفه أحلامها، وعاب أصنامها، فكاشفوه بالعداء، وقصدوه بالإيذاء. ونصبوا له الحبائل، وتربصوا به الدوائر، وهو يتلقى كل ذلك بِجَنَّةِ الصبر وعدَّة الإيمان، ومن ورائه عمه أبو طالب يذود عنه ويحميه، وزوجه السيدة خديجة تواسيه وتقويه، حتى سلخ على هذه الحال الشديدة عشر سنين. وفي السنة العاشرة من رسالته فجعه الموت في ذلك العم النبيل، وفي تلك الزوجة الفاضلة في يومين متقاربين، فاشتد عليهما حزنه، وخرج بعدهما في مكة مقامه. فانتهى الهجرة بالمسلمين إلى المدينة - وقد أسلم فيها كثير من الأوس والخزرج - فأحس المشركون منه هذا العزم فأثمتروا به ليقتلوه. ولكنه خرج ليلة اجتماعهم على قتله هو وصديقه أبو بكر إلى المدينة تكلؤهما عين لا تغفو وقوة لا يقام لها بسبيل. فبلغاها يوم الجمعة الثاني عشر من شهر ربيع الأول سنة ٥٣ من مولده، وهو يوافق اليوم الرابع والعشرين من سبتمبر سنة ٦٢٢ م. فكانت هذه الهجرة المباركة مبدأ لعلو كلمته وانتشار دعوته وتمام نصرته. واستمر يجاهد المشركين. يجادلهم بالقرآن، ويجالدهم بالسيف، حتى انحسر العمى وانجاب الشرك، وعلمت شمس التوحيد في أفق الوجود.

وحيثُ نزل قول اللهُ تعالى: ﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتَمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا﴾^(٢) (فلم يأت على نزول هذه الآية الكريمة ثلاثة أشهر حتى مرض الرسول بالحمى ولحق عليه الصلاة والسلام بالرفيق الأعلى يوم الاثنين ١٣ من ربيع الأول سنة ١١ هجرية، ٨ من يونيو سنة ٦٣٢ ميلادية.

صفته:

وصفه بعض من رآه قال: كان رسول اللهُ ﷺ فحماً يتلألأ وجهه تلالؤ القمر ليلة البدر، أطول من المربع وأقصر من المشدب، عظيم الهامة، رجل الشعر، إن انفرت عقيقته فرق وإلا فلا يجاوز شعره شحمة أذنيه إذا هو وفره؛ أزهر اللون، واسع الجبين، أزج الحواجب سوابغ من غير قرن، بينهما عرق يُدرُّه الغضب، ألقى العرنين له نور يعلوه،

(١) سورة: المدثر: الآية: ١ - ٣.

(٢) سورة: المائدة، الآية: ٣.

ويحسبه من يتأمله أشم؛ كَتَّ اللحية، أدعج، سهل الخدين، ضليح الفم، أشنب مفلج الأسنان، دقيق المَسْرَبَة، كأن عنقه جيد دمية في صفاء الفضة؛ معتدل الخلق بادناً متماسكا سواء البطن والصدر، بعيداً ما بين المنكبين، ضخم الكراديس، أشعر الذراعين والمنكبين وأعالي الصدر، طويل الزندين، رحب الراحة، شثن الكفين والقدمين، سائل الأطراف، سَبَط العصب، خمصان الأخصمين، مسيح القدمين ينبو عنهما الماء. إذ زال زال تَقْلَعاً، ويخطو تكفوؤاً، ويمشي هوناً. ذريع المشية، إذ مشى كأنما ينحط من صَبَب، وإذ التفت التفت جميعاً، خافض الطرف، نظره إلى الأرض أطول من نظره إلى السماء. جُل نظره الملاحظة، يسوق أصحابه ويبدأ من لقيه بالسلام. وكان ﷺ متواصل الأحزان دائم الفكرة طويل السكوت، يفتح الكلام ويختمه بأشداقه، ويتكلم بجوامع الكلم؛ دمثاً ليس بالجافي ولا المَهين. إذا أشار أشار بكفه كلها، وإذا تعجب قلبها، وإذا تحدث اتصل بها فضرب بإبهامه اليمنى راحته اليسرى، وإذا غضب أعرض وأشاح وإذا فرح غَضَّ طرفه. جُل ضحكة التيسم، ويفتر عن مثل حب الغمام.

فصاحته :

تقلب رسول الله ﷺ في أخلص القبائل منطلقاً أو عذبها بياناً؛ فولد في بني هاشم، ونشأ في قريش، واسترضع في بني سعد. فكان أفصح العرب لساناً بالفطرة. وقد حدث بذلك عن نفسه فلم يُزَيَّف حديثه ولم يُدفع قوله. وفصاحة الرسول أشبه بالإلهام والفيض، فلم يعانها ولم يتكلفها ولم يرتض لها، وإنما أسلست له الألفاظ وأسمحت له المعاني فلم يَنْدُ في لسانه لِفَهْمٌ، ولم يضطرب في أسلوبه عبارة، ولم يعزب عن علمه لغة، ولم يَنْب عن خاطره فكرة وكان كلامه كما قال الجاحظ: الكلام الذي قل عدد حروفه وكثر عدد معانيه، وجل عن الصنعة ونزه عن التكلف. استعمل المبسوط في موضع البسط، والمقصور في موضع القصر، وهجر الغريب الوحشي، ورغب عن الهجين السوقي، فلم ينطق إلا عن ميراث حكمة، ولم يتكلم إلا بكلام قد حُف بالعصمة، وشد بالتأييد ويسر بالتوفيق. ثم لم يسمع الناس بكلام قط أعم نفعاً، ولا أصدق ولا أسهل مخرجاً، ولا أفصح من معناه، ولا أبين عن فحواه، من كلامه ﷺ.

أثر الحديث في اللغة والأدب :

أما أثر هذه البلاغة الروحية والفصاحة النبوية في اللغة وآدابها فأبين من أن يُبين، فإنه عليه الصلاة والسلام قد اجتمع له ما لم يجتمع لغيره من قوة الطبع وصفاء الحس ومحض السليقة وثقوب الذهن وتمكن اللسان ومؤازرة الوحي، فكان يقتضب ويتجوز ويشق، ويهجع بالمذاهب البيانية، ويرتجل الأوضاع التركيبية، ويضع الألفاظ الاصطلاحية، فيصبح ما أمضاه من ذلك حسنة من حسنات البيان، وسراً من أسرار اللسان، يزيد في ميراث اللغة،

ويرفع من قدر الأدب . كقوله عليه الصلاة والسلام : مات خَافَ أَنفَهُ . الآن حمي الوطيس .
هُدنة على دَخَن . يا خيل الله اركبي . لا ينتطح فيها عتران . وقوله لحادي النساء رويدك !
رفقاً بالقوارير . وقوله في يوم بدر : هذا يوم له ما بعده . ناهيك بما استحدثه عليه الصلاة
والسلام من أساليب الدين وألفاظ الشريعة مما لم يأت به الكتاب .

٢٤ - عمر بن الخطاب

٥٨٤ - ٦٤٤ م

٤٠ ق هـ - ٢٣ هـ

نشأته وحياته :

ولد أبو حفص عمر الفاروق بن الخطاب القرشي بعد مولد الرسول ﷺ بثلاث عشرة سنة، ونشأ نشأة الفتيان من قريش، فرعى الماشية صغيراً، ومارس التجارة والحرب كبيراً، ثم أخذ نفسه بثقافة الأشراف من قومه، فتعلم الكتابة، وتقلب في التجارات بين اليمن والحبشة جنوباً، والشام والعراق شمالاً حتى فخم أمره وعظم قدره . واشتهر في الناس ببلاغة اللسان، وثبات الجنان، وقوة الشكيمة، ومضاء العزيمة، فجعلت له قريش السفارة بينهم وبين قبائل العرب في السلم والحرب . ولما جاء الإسلام عارضه وناهضه ولجَّ في الخصومة والإنكار على متبعيه، والمسلمون يومئذ لا يزيدون على خمسة وأربعين رجلاً وثلاث عشرة امرأة يجتمعون سراً في دار الأرقم المخزومي، فكان الرسول ﷺ يدعو الله أن يعز الإسلام به أو بأبي جهل، فأختاره الله لهذه السعادة، وشرح صدره للشهادة . وذلك أنه دخل على ختنته يؤنبه ويعذبه على إسلامه . فَلَحَّتْه أخته وأخرجت له صحيفة فيها آيات من سورة طه، فلما قرأها تعظمت في صدره وقال : أمين هذا قرت قريش؟ ثم سأل أين الرسول؟ فقيل له في دار الأرقم . قال عمر : «فأتيت فضربت الباب فاستجمع القوم . فقال لهم حمزة : ما لكم؟ قالوا عمر! قال : وعمر! افتحوا له فإن أقبل قبلنا منه، وإن أدبر قتلناه . فسمع ذلك رسول الله ﷺ فخرج، فتشهدت، فكبر أهل الدار تكبيرة سمعها أهل مكة . قلت يا رسول الله ألسنا على الحق؟ قال : بلى ! قلت : فقيم الاختفاء؟ فخرجنا صفيين أنا في أحدهما وحمزة في الآخر حتى دخلنا المسجد . فنظرت قريش إليّ وإلى حمزة فأصابتهما كآبة شديدة . فسماني رسول الله ﷺ الفاروق يومئذ .»

٢٤ - انظر ترجمته في : الإصابة : ترجمة ٥٧٣٨ ، وحلية الأولياء : ٣٨/١ ، وصفة الصفوة : ١٠١/١ ، وأخبار القضاة : ١٠٥/١ ، والكامل في التاريخ : ١٩/٣ ، والبده والتاريخ : ٨٨/٥ ، والخميس : ٢٥٩/١ و ٢٣٩/٢ ، واليعقوبي : ١١٧/٢ ، والأعلام للزركلي : ٤٦/٥ .

كان ذلك وسنه ست وعشرون سنة والأذى قد اشتد بلاؤه بالمسلمين فاحتمل منه نصيبه، وعادى في الله صديقه ونسيبه، حتى تسأل المؤمنون لؤاداً إلى المدينة فأرّين من العذاب والفتنة. فلم يشأ عمر الجريء الباسل أن يخفي هجرته، وإنما تقلد سيفه وتنكب قوسه وأتى الكعبة، وأشرف قريش بفنائها، فطاف وصلى، ثم أقبل عليهم وقال: «شاهت الوجوه! من أراد أن تتكلمه أمه ويّتم ولده وترمل زوجته فليلقني وراء هذا الوادي!» فلم يتبعه أحد.

ولم يزل مع رسول الله الصاحب الأمين يؤيده بسنانه ولسانه، ويرى له الرأي فيقره القرآن في بعض الحوادث، حتى قبض الرسول واختلف الأنصار والمهاجرون فيمن يكون الخليفة، فأيد هو أبا بكر حتى تمت له البيعة. وقام منه في خلافته مقام المستشار المؤتمن والناصي العدل، حتى حضر الموت أبا بكر فلم يجد غيره من عهد إليه بالخلافة فتولاها بقوة المؤمن المخلص، وعزمه القوي الشجاع، وحنكة الشيخ المجرب، وحكمة العبقري الأيب، ووضع يده على ملكوت كسرى وقيصر، وطفق وحده وهو في قلب الصحراء الحطبية يديره ويسوسه. فيولي الولاة، ويختار القضاة وينصب القواد، ويحرك الأجناد، ويعت الأعداد، ويرسم الخطط، ويخطط المدن، ويسن السنن، ويقسم الفيء ويقوم الحدود، مما يتوء بالحكومات ويلتوي على المجالس. وكل ذلك في سداد رأي وثقوب ذهن وبعد نظر ومضاء عزم. وكل ذلك وهو مفترش الغبراء، ويعايش الدهماء، ويتدثر بالثوب الخلق، ويأتمم بالحل والزيت ولا تزيد نفقته من بيت المال على درهمين في اليوم. ولا تزال خلافته مثل من المثل العليا في النظام والعدل والأمن. ولكن عمر الذي أَرْضَى الله والناس بعدله وفضله، لم يُرَضْ عبداً مجوسياً اسمه لؤلؤة، إذ نصح له أن يحسن إلى مولاه الغيرة بن شعبة، وألا يستكثر عليه درهمين في اليوم يؤديهما إليه، وهو نجار ونقاش وحداد، فاحتقد عليه هذه النصيحة، ودب إليه في الغلس وهو قائم يصلي بالناس في الفجر فطعنه بخنجر ذي نصلين طعنات كانت سبب موته. وذلك ليلة الأربعاء لثلاث بقين من ذي الحجة سنة ٢٣ هـ.

صفاته ومواهبه :

كان أمير المؤمنين عمر طويلاً جسيماً، أبيض شديد الحمرة، أصلع أشيب، خفيف شعر العارضين، أصهب طرف السبال كبيره. وكان رقيقاً رقيقاً إلا إذا وجب الحق فلا تأخذه فيه هواده. وقيل من سلم من كبار الصحابة وأشرف القبائل من درته (عصاه). وكان مُحَصِّدَ الرأي، مُحَكِّمَ الحيلة، مُوثِقَ الحجّة، شديد الورع، طاهر اليد، واسع العلم، حافل الخاطر بالحكمة، بارع الفقه في الدين، إذا ذكرت علياً ببلاغه اللسان ذكرته هو ببلاغه العقل. وحسبك أن تقرأ له عهوده وكتبه للقضاة والولاة والقادة فترى منه الفقيه المجتهد، والإداري

الخطاؤم ووالسليسي الممخلك، وكل ذلك دورن تفتقين وولا ورحي وولا اقتداء، وولما هو فضل الله
بؤيته من يشاء .

نمردخ من عهدده وخطبه:

ذلك عهدده اللى موسى الأشعوري حين وولاده الفضلاء، وقد اعتبره جمهور من الفضلاء
أساساً للظلم وقعدة للأحكام وما أجاروه بذلك!

بسم الله الرحمن الرحيم . من عبد الله عمر أمير المؤمنين اللى عبد الله بن قيس،
سلاؤم عليلك . أما بعد فإين الفضلاء فوريضة محكمة ومسة متبعة . فلفهم إيد اللى اللى لا يرفع
لا يرفع تكلمهم بحق لا نفلذله . أمس بين اللئس في وجهك وعملك ومجلسك، حتى لا يطمع
شريف في حينك، ولا يبلس ضعيف من علكك . اليتة على من ادهي واليمين على من
أثكر . والصلح جلتز بين المسلم من إلا صلحاً أحل حراماً أو حرم حلالاً . لا يمتغلك قضاة
قضيته اليوم فواجبت فيه نفسك وهديت فيه لرشناك أن ترجع اللى الحق فإين الحق قديهم،
مراجعة الحق خير من التملوي في الباطل . الفهم الفهم فيما تلجج في صدارك مصاليس
كطلب والإسنة . ثم الحوف الأشباه والأمثال فقس الأمور عند ذلك واعمد اللى أو بهي عند
الله وأشبهها بالحق . واجعل لمن ادهي حقاً غلباً أندا أنتهي إليه . فإين أحضر بيته أخذت له
بحقه وإلا استطلت عليه القضية، فإينه ألقى للشك وأجلى للعوى . المسلمون عند أول
بعضهم على بعض إلا مجلوا في حلد، أو مجرباً عليه شهادة زور، أو وظيننا في ولاء
أو ونسب، فإين الله تولى مفككم السرائر وورأب اللينات والأيمان، وإيالك والخلق والضجر والتدوي
بالخضرم والتكر عند الخضرمات، فإين الحق في موطن الحق يعظم الله به الأجر ويحسن
به الأخر؛ فمن صحته نيته وأقبل على نفسه ككفاه الله ما بينه وبين اللئس . ومن تعلق للئس
بما يعلم الله أنه ليس من نفسه شئنا الله، فما ظلك بثواب غير الله في عجل رزقه وخزائنه
رحمة؟ والسلام .

ومن خطبة له رضي الله عنه:

أيها اللئس! إله ألقى علي حين وولنا أحسب أن من قوراً القور أن يلمنا يريد الله وما عنده .
ألا وإله فقد حيل اللى أن أقول ما يقرو لنا القور أن يريداون معا عند اللئس . ألا فلأريه الله بقوركم
ورأيه به بأعمالكم، فإينما كنا نعرفكم إيد اللحي ينزل، وإيد اللهي بين أظهرنا، فقد رُفع
اللحي وذهب اللهي عليه السلاام، فإينما أعرّفكم بما أقول لكم: ألا فمن أظهر لنا خيراً، ظننا
به خيراً أو ثنيا به عليه، ومن أظهر لنا شراً ظننا به شراً أو بعضنا عليه .

ألقوا هذه النفوس عن شهواتها فإينها طاعة . وإيالكم ألا تقعدوها تترج بكم اللى شر
غلية إن هذا الحق ثقيل مريء، وإيد الباطل خفيف وبيء، وقرك الحظية خير من معالجحة
التورية .

٢٥ - علي بن أبي طالب ٦٠٠ - ٦٦١ م ٢٣ ق هـ - ٤٠ هـ

نشأته وحياته:

ولد أمير المؤمنين عليّ بن أبي طالب قبل الهجرة بإحدى وعشرين سنة، ورُبي مع الرسول في بيته تخفيماً عن أبيه. ولما بعث النبي ﷺ بالرسالة كان عليّ مراهقاً، فأمن به وشب على حبه، وتغلغت أصول الدين في قلبه، وخاطر بنفسه في سبيل الرسول ليلة هجرته، وأبلى البلاء الحسن في تأييده ونصرته، وشهد الغزوات كلها إلا تبوك فقد خلفه النبي فيها على أهله. فلما لحق الرسول بربه كان عليّ يرى أنه أحق بخلافته لمكاته من شرف القرابة والصهر. فلما بايع المسلمون أبا بكر وقام بعهد من بعده عمر، وأخطأته الثورى إلى عثمان، ناوص الجرة ثم سالمها، متحاملاً في كل ذلك على نفسه. وقُتل عثمان فبايعه الناس في الحجاز، وامتنع معاوية وأهل الشام معه غضباً لمقتل عثمان وعود عليّ عن القتلة. وكان ما كان من الفتنة التي حلّت العقد، وأوهنت العرى، وقسمت المسلمين إلى طائفتين تعادتا واقتلتا حيناً من الدهر. ثم قرت السيوف في الأعماد دون أن يستوثق الأمر لأحد الرجلين. واثمر ثلاثة من الخوارج بزمعاء هذه الفتنة الثلاثة: معاوية وعمرو بن العاص وعلي. فكان أمير المؤمنين نصيب ابن ملجم، فقتله غيلة بمسجد الكوفة سنة ٤٠ هـ وقد مضى على خلافته أربع سنين وتسعة أشهر إلا أياماً.

أخلاقه ومواهبه:

كان عليّ كرم الله وجهه قوي العضل صادق البأس شجاع القلب لا يبالي أوقع على الموت أوقع الموت عليه. وكان حجة في الفقه، قُدوة في الورع، شديد الشكيمة في الحق، قوي الثقة بالنفس، لا يعرف الهوادة في الدين ولا المرونة في الدنيا؛ فكانت هذه الخلال الكريمة من أنصار معاوية الداهية في الخلاف عليه. ولا نعلم بعد رسول الله فيمن سلف وخلف أفصح من علي في المنطق، ولا أبل ريقاً في الخطابة. كان حكيماً تتفجر الحكمة من بيانه، وخطيباً تندق البلاغة على لسانه، وواعظاً ملء السمع والقلب، ومترسلاً بعيد غور الحججة، ومتكلماً يضع لسانه حيث شاء. وهو بالإجماع أخطب المسلمين وإمام

٢٥ - انظر ترجمته في: تاريخ الأمم والملوك: ٨٣/٦، وصفة الصفوة: ١١٨/١، والبده والتاريخ: ٧٣/٥، وتقاتل الطالبين: ص ١٤، وحلية الأولياء: ٦١/١، وشرح نهج البلاغة: ٥٧٩/٢، ومنهاج السنة: ٢/٣، وتاريخ الخميس: ٢٧٦/٢، والإسلام والحضارة العربية: ١٤١/٢.

المنشئين، وخطبه في الحث على الجهاد، ورسائله إلى معاوية، ووصفه الطاووس والخفاش والدينا، وعهده للأشتر النخعي إن صح ذلك، تعد من معجزات اللسان العربي، وبدائع العقل البشري. وما نظن ذلك قد تهيأ له إلا لشدة خلطه للرسول ووبرآته منذ الحدائثة على الخطابة له والخطابة في سبيله.

نموذج من كلامه:

كلام أمير المؤمنين يدور على أقطاب ثلاثة. الخطب والأوامر، والكتب والرسائل، والحكم والمواعظ. وقد جمعها على هذا النسق الشريف الرضي في كتاب سماه (نهج البلاغة) لأنه كما قال بحق: «يفتح للناظر فيه أبوابها، ويقرب عليها طلابها، فيه حاجة العالم والمتعلم، وبيعة البليغ والزاهد، ويضيء في أثنائه من الكلام في التوحيد والعدل ما هو بلال كل غلة، وجلاء كل شبهة» والصحيح أن أكثر ما في هذا الكتاب منقول مدخول.

فمن خطبه عليه السلام وقد قام إليه رجل من أصحابه فقال: نهيتنا عن الحكومة ثم أمرتنا بها فلم ندر أي الأمرين أرشد. فصفق عليه السلام إحدى يديه على الأخرى ثم قال: هذا جزاء من ترك العقدة! أما والله لو أني حين أمرتكم بما أمرتكم به حملتكم على المكروه الذي يجعل الله فيه خيراً، فإن استقمتم هديتكم، وإن اعوججتم قومكم، وإن أبيتم تداركتكم، لكانت الوثقى. ولكن بمن وإلى من؟ أريد أن أدأوى بكم وأنتم دائي، كناقش الشوكة بالشوكة وهو يعلم أن ضلعها معها. اللهم قد ملت أطباء هذا الداء الدوي، وكلت النزع بأشطان الركي! أين القوم الذين دُعوا إلى الإسلام فقبلوه، وقرأوا القرآن فأحكموه، وهجوا إلى القتال فولهوا وله اللقاح إلى أولادها، وسلبوا السيوف أعمادها، وأخذوا بأطراف الأرض زحفاً زحفاً، وصفاً صفاً، بعض هلك، وبعض نجا، لا يبشرون بالأحياء، ولا يعزّون بالموتى. مره العيون من البكاء، خمص البطون من الصيام، ذبل الشفاه من الدعاء، صفر الألوان من السهر، على وجوههم غبرة الخاشعين. أولئك إخواني الذاهبون! فحق لنا أن نظماً إليهم ونعص الأيدي على فراقهم.

إن الشيطان يُسني لكم طرقه، ويريد أن يحل دينكم عقدة عقدة، ويعطيكم بالجماعة الفرقة. فاصدقوا عن نزغاته ونفشاته، واقبلوا النصيحة ممن أهداها إليكم وأعقلوها على أنفسكم.

ومن كلام له عليه السلام:

إلا وإن الخطايا خيل شمس حُمِل عليها أهلها، وخلصت لجمها فتحممت بهم في النار. وإن التقوى مطايا دُلل حُمِل عليها أهلها، وأعطوا أزمّتها فأوردتهم الجنة. حق وباطل، ولكل أهل. فلئن أمر الباطل فقديماً فعل، ولئن قل الحق فلربما ولعل، ولقلماً أدبر شيء فأقبل. شغل من الجنة والنار أمامه. ساع سريع نجا، وطالب بطيء رجا، ومقصر في النار

هوى، اليمين والشمال مضلة، والطريق الوسطى هي الجادة، عليها باقي الكتاب وآثار النبوة، ومنها منفذ السنة، وإليها مصير العاقبة.

٢٦ - سبحان وائل

٠٠٠ - ٦٧٤ م

٠٠٠ - ٥٤ م

نشأته وحياته :

نشأ سبحان بن زفر بن إباد في الجاهلية بين قبيلة وائل من ربيعة، ثم دخل في الإسلام عند ظهوره، واتصل بمعاوية، فحسن موقعه لديه، واعتمد في يوم الكلام عليه. وكان سبحان خطيباً عَمَّرَ البديهة، قوي العارضة، متصراً في فنون الكلام، كأنما يتلو عن ظهر قلبه. وبه يضرب المثل في كل ذلك.

قدم على معاوية وفد من خراسان فطلب سبحان فلم يجده في منزله، فاقتضب من حيث كان وأدخل عليه. فقال له معاوية: تكلم. فقال: أحضروا إلي عصا. قالوا وما تصنع بها وأنت بحضرة أمير المؤمنين؟ قال: ما كان يصنع بها موسى وهو يخاطب ربه. فضحك معاوية وأمر له بها. فلما جاءته ركلها ولم ترق في نظره، فجاءوه بعصاه، وخطب من صلاة الظهر إلى أن حان وقت العصر ما تنحنح ولا سعل ولا توقف ولا تلكأ ولا ابتدأ في معنى وخرج منه وقد بقي فيه شيء. فما زالت تلك حاله حتى دهش منه الحاضرون. فأشار إليه معاوية بيده فأشار إليه سبحان: لا تقطع عليّ كلامي! فقال معاوية: الصلاة! قال هي أملك! نحن في صلاة وتحميد، ووعده ووعيد. فقال معاوية! أنت أخطب العرب، قال سبحان: والعجم والجن والإنس. وهذه الحادثة تدل على قوته وجُرأته وغزارة بحره، ومعرفته لقدره. ولكن المأثور من خطبه قليل في جانب شهرته. ولعل خلوه من الجاه والرياسة، وبعده عن الأحزاب والسياسة، وطول خطبه ووحدة موضوعها صرف الرواة عنه. كانت وفاته في خلافة معاوية سنة ٥٤ هـ.

نموذج من خطبه :

إن الدنيا دار بلاغ، والآخرة دار قرار. أيها الناس فخذوا من دار مَمْرُكُم، إلى دار مفركم، ولا تهتكوا أستاركم، عند من لا تخفى عليه أسراركم؛ وأخرجوا من الدنيا قلوبكم،

٢٦ - انظر ترجمته في: بلوغ الأرب: ٣/١٥٦، وشرح المقامات للشرشي: ١/٢٥٣، وتهذيب ابن عساكر: ٦٥/٦، وخزانة الأدب: ٤/٣٤٧، ومجمع الأمثال: ١/١٦٧، والأعلام للزركلي: ٣/٧٩.

قيل أن تخرج منها أيدانكم، قبيها حيتم، ولغيرها خلقتم، إن الرجل إذا هلك، قال الناس ما ترك؟ وقالت الملائكة ما قدم؟ فقدموا بعضاً يكون لكم، ولا تخلقوا كلاً يكون عليكم.

٢٧ - زياد ابن أبيه

٦٢٢ - ٦٧٣ م

١ - ٥٣ هـ

نشأته وحياته :

كان للحارث بن كلثة الثقفي طيب العرب أمه يغيّ تدعى سمية، وعيد رومي يسمى عبيداً. فزوج العيد من الأمة. فولدت على قراشه زيلداً في السنة الأولى من الهجرة! وقد ضربت فيه يرق أثيب قشاً أريياً أديباً. ولم يكلد أمر المسلمين يتسع ويتسقى حتى دلت عليه كفايته، فاستكبه أبو موسى الأشعري والي البصرة من قبل عمر، فتجلى نبوغه وظهر خلقه. ثم تقلبت به الأمور في عهد عمر حتى شاء أن يعزله عن عمله «لا للخيانة ولا للعجز، وإنما كره أن يحمل على الناس فضل عقله» على أن عمر كان يستكبه المهم من أموره فيكتبه غير عاجز ولا مقصر. وخطب بين يديه يوماً في حضرة المهاجرين والأنصار خطبة لم يسمعوا مثلها. فقال عمرو بن العاص: لله در هذا الغلام! لو كان أيوه من قريش لساق العرب بعصه. وبلغ من إعجاب أبي سفيان به أن اعترف بعلمه لإسلامه لعلية قريش وفهمه على أن زيلداً ابنه، اشتملت عليه أمه منه وهو مشرك، ولكن خوفه من عمر منعه أن يلحقه بنسبه. ولما تولى الخلافة أمير المؤمنين عليّ وجد في زيلداً اليد المصرفة، والرأي الجسيم، واللسان الذرير، فاستعمله، فراض له الأمور، وسد الثغور، وأحكم السلاسة. وحلول معلومة أن يستميله إليه فأعياه حتى قتل عليّ، فرأى أن يستخلص مودته بلمساحته بنسب أبيه وادعائه أنحاً له، فصار يدعى بعلم ذلك زيلداً بن أبي سفيان. ولكن كثيراً من الناس لا يعترف له بهلنا النسب، ثم ولاة معلومة المصيرين، وهو أول من جمعاً له فكذلك يقيم في البصرة ستة أشهر ووفي الكوفة مثلها. كانت وفاته بلطاعون سنة ٥٣٣ هـ.

أخلاقه وموراهيه :

كانت زياد من ذوي الأعلام الوافرة والأذنهان الحاضرة واللسان الفتيق، قال فيه

٣٧ - أنظر ترجمته في: تاريخ الطبري: ١١/٣٤٦٣٥ - ٣٤٦٦٦، ٢/٦٦١ - ٨٧٧، ٣/٥٨٧ ومروج الذهب: ٥/١١٥
والأعطني: ١١٣/٧٣٣ - ٧٣٥، ١١٦/٣٣ - ٩٩، ٣١١/٣١١ - ٤٤٠ ومعجم البلدان: ١١/٩٠٥ ومقلمة ابن خلدون:
٣/١١٥ - وابن خلدون: البلبه والتاريخ: ٢/٣٦، وخزولة الأديب: ٣/١١٧، وطلحة المحلوف الإسلامية
٤٤/١١٣٣٤ - ١١٣٣٥، والأعلام للزركلي: ٣/٥٣٣.

الشعبي: مما سمعت متكلماً على منبر فقط تكلمهم فأحسن إلا أحييت لأن يسكت خوفاً من أن يسبيء إلا زليلاً؛ فإياه كلما أكثر كلان أجود كلاً ذملاً.

وزيلد من أقوى العمد التي قلم عليها عوش بنبي أمية. روى به معروفة ووجوه اللقن فلم الشعت وشند السلطان، واشتد في العقوبة! فأخذ بالظنفة، وعقب على الشبهة، وقتل السمعان، واستصلح السير، ووظف اللسان خوفاً شديداً حتى أمن بعضهم بعضاً، وحتى كلان الشبيء يستقط من يد الرجل والمرأة فلا يعرض له أحد حتى يلتفه صاحبه فيأخذه، ولا يغلق أحد بلبه. وهو أول من أعلن الحكم العرفي في الإسلام بخطبة المعروفة بالبراءة وهي التي خطبها حين قدام البصرة.

نموذج من كلامه: خطبته البراءة

أما بعد: فيلن الجبهة الجهاد، والفضالة العميلة، والغي المرفي بئله على النار ما فيه سنهلاؤكم، ويشتمل عليه حملواكم من الأمور التي بينت فيها الضعيف، ولا يتعشى عنها الكبير، كلنكم لهم تقراً أو ككتاب الله، ولم تسمحوا ما أعد الله من الثواب الكريم لأهل طاعة، والعداب الأليم لأهل معصيته، في الزمن السومني الذي لا يزول. إله ليس منكم إلا من ظرففت عينه اللانيل. وسلدت مسامحة الشهوات، واختار الفلانية على البسقية، ولا نكروون أنكم أحدثتم في الإسلام اللحدث الذي لهم تسبقوا إليه، من تترككم الضعيف كتهر، والضعيفة المسلمية باللهاز لا تنصر، والعلو غير قليل، والجمع غير متروق. ألم يكن منكم نهضة يمعرون العواة عن طاج الليل وغارة الهاز؟ أقربتهم القراة، وبعثتم اللين. تعت لزون بغير العذر، وقصرون على الكبر، كل امرئ منكم يرد من سفيهه صنع من لا يخلف عاقبة ولا يرجو معاد! ما أنتم باللحلمة، ولقد تبعتم السنهله، فلم يزال بكم دمار من قبلكم دونهم حتى انتهكوا حرم الإسلام، ثم أطروا ورانكم كنوساً في مكلس الرب، حرام على الطعم والشراب حتى أسويها بالأرض هلماً وإحراقاً. إن رأيت آخر هذا الأدم لا يصلح إلا بما صلح به أوله: لين في غير ضعفاء، وشدة في غير عفا، ولين لأقسام بالله لا حنن اللين والمقيم بالطاعن، والمطيع بالعاصي، والصحيح بالسقيم، حتى يلقى الرجل أخاه فيقول: الحج سعد فقد هلك سعيد، أو تستقيم فقلنكم. إن كلبه الأدمير بلقاء مشهورة، فلما تعفتهم على بكنية فقد حلت لكم معصيتي. فلما سمعتموها مني فلتتمروها في أعظموا أن عضدي أمثلها، من نقيت منكم عليه فلنا ضامن لما ذهب من دمه. فليئي ودلج الليل فليئي لا أوتي بملح إلا سفتك دمه. وقد أجلكم في ذلك بمنقار ما ليئي الصخر الكوفة ويرجع إليكم، ووليي ودعوى الجاهلية، فليئي لا أجدا أحداً دعا بها إلا قطعت لسلته. وقد أحد ثم أحدنا لم تكن، وقد أحدنا لكل ذنب عقوبة. فمن أفرق قوماً أفرق قلبه، ومن أفرق قوماً أفرق قلبه. ومن نقب قلباً نقبنا عن قلبه. ومن نبش قبراً ادخله فيه حياً. فكفوا عني ألييكم وألستكم أكتف عكم يني ولسلني. ولا تظهر من أحدكم ربية بخلاف ما عليه علمكم إلا

ضربت عنقه . وقد كان بيني وبين قوم إحنٌ فجعلت ذلك دَبْرَ أذني وتحت قدمي . إني لو علمت أن أحدكم قد قتله السُّلُّ من بُغْضِي لم أكشف له قناعاً، ولم أهتك له ستراً، حتى يبدي لي صفحته فإذا فعل ذلك لم أناظره . فاستأنفوا أموركم . وأعينوا على أنفسكم، فَوْبٌ مَبْتَسٌ بقدمونا سُبُسر، ومسرور بقدمونا سيبثس .

أيها الناس! إنا قد أصبحنا لكم ساسة، وعنكم ذادة، نسوسكم بسلطان الله الذي أعطانا، ونذود عنكم بفيء الله الذي حولنا، فلنا عليكم السمع والطاعة فيما أحببنا . ولكم علينا العدل فيما ولىنا . فاستوجبوا عدلنا ووفيتنا بمناصحتكم لنا . وأيم الله إن لي فيكم لصرعى كثيرة، فليحذر كل منكم أن يكون من صرعاي!

٢٨ - الحجاج بن يوسف

٦٦١ - ٧١٤ م

٤١ - ٩٥ هـ

نشأته وحياته :

ولد أبو محمد الحجاج بن يوسف الثقفي سنة ٤١ في مهد الخمول والفقير . فزاول مع أبيه تعليم الصبية بالطائف؛ إلا أن نفسه الرغبية الطامحة ربأت به عن الضعة فلقت إليه بذكائه رَوْحَ بن زنباع الجذامي أحد أعوان عبد الملك بن مروان فجعله في شُرطته . ورأى الخليفة انحلال عسكره فشكا ذلك إلى رَوْح بن زنباع فدلّه على الحجاج، فقلده إمرة الجند فسلكهم في النظام وردهم إلى الطاعة . ثم اشتهر أمره ونبه ذكره بقيادة الجنود إلى عبد الله بن الزبير، وقد دعا إلى نفسه بالحجاز، فحاصره بمكة ثم قتله وأزال ملكه . فثبتت كفايته وسمت مكانته في نفس عبد الملك، فولاه العراق وهو يضطرب بفتنة الشيعة، ويضطرم بثورة الخوارج، فعسفهم عسفاً شديداً أذل أعناقهم، وطأطأ إشرافهم، وعاد بهم إلى حظيرة الجماعة يتعثر في أشلائهم، ويخوض بهم في دمائهم .

وبقي طول حياته بالعراق دعاماً لملك عبد الملك وابنه الوليد يضبطه ويبسطه حتى طبق ما بين الشام والصين . ثم مات بواسط سنة ٦٥ هـ .

٢٨ - انظر ترجمته في : البدء والتاريخ : ٢٧/٦ ، والجرح والتعديل : ١٦٨/٣ ، وتعجيل المنفعة : ص ٨٧ وتاريخ البخاري : ٣٧٢/٢ ، والمعارف : ص ٣٩٥ ، ٥٤٨ ، ومروج الذهب : ٣٦٥/٣ ، والبدء والتاريخ : ٢٧/٦ ، ومعجم البلدان : ٣٨٢/٨ ، وشذرات الذهب : ١٠٦/١ ، والأعلام للزركلي : ١٦٨/٢ .

أخلاقه ومواهبه:

كان الحجاج طامحاً إلى السلطان والمجد، فسلك إليهما سبيل الظلم والقسوة، وتذرع لئليهما بالفصاحة والقوة، ورزقه الله من طلاوة اللسان وقوة الجنان القسط الأوفر، فانتهى أمره إلى السلطان القاهر والكلمة النافذة. قال له عبد الملك يوماً: كل امرئ يعرف عيوب نفسه، فصفت نفسك ولا تخف عني شيئاً. فقال: «أنا لجوج حقوق حسود. ومتى كانت هذا الصفات في متسلط أهلك الحرث والنسل إلا أن يدين له الناس ويذلوا» وكان فصيحاً قوي الحجّة لا يكاد يعدله في ذلك أحد من أهل زمنه. قال مالك بن دينار: «ما رأيت أحداً آتياً من الحجاج: إنه كان ليرقى المنبر فيذكر إحسانه إلى أهل العراق وصفحه عنهم وإساءتهم إليه حتى لأحسبه صادقاً وأظنهم كاذبين». مع أنه قتل منهم بالصبر مائة وعشرين ألفاً، وتوفي وفي سجنونه منهم خمسون ألف رجل وثلاثون ألف امرأة.

نموذج من خطبه:

لما قدم الحجاج أميراً على العراق دخل المسجد مُعْتَمِماً بعمامة قد غطى بها أكثر وجهه، وصعد المنبر وهو متملد سيفه مُتَنَكِّب قوسه، ومكث ساعة لا يتكلم. فقال الناس بعضهم لبعض: قبح الله بني أمة إذ تستعمل مثل هذا على العراق! وهُم عُمَيْر بن ضابيء البرجمي أن يرحمه، فمنعه الناس حتى يروا عاقبة أمره، فلما رأى الحجاج عيون الناس إليه حسر اللثام عن فيه ونهض فقال:

أنا ابن جلا وطلّاع الشنايا متى أضع العمامة تعرفوني

يا أهل الكوفة! إني لأرى رؤوساً قد أينعت وحان قطافها، وإني لصاحبها! وكأني أنظر إلى الدماء بين العمامم واللحي!

هذا أوان الشد فاشتدى زيم
ليس براعي إبل ولا غنم
قد لفها الليل بعصلي
أروع خراج من الدوي

مهاجر ليس بأعرابي

قد شمرت عن ساقها فثدوا
والقوس فيها وتر عرد
وجدت الحرب بكم فجدوا
مثل ذراع البكر أو أشد

لابد مما ليس منه بد!

إني والله يا أهل العراق ما يُقَعِّعُ لي بالشان، ولا يُعْمِزُ جانبي كَتَمَاز التين. ولقد فررت عن ذكاء، وفتشت عن تجربة. وإن أمير المؤمنين أطال الله بقاءه، نشر كنانته بين يديه فعجم عيدانها فوجدني أمرها عوداً وأصلبها مكسراً فرماكم بي. لأنكم طالما أوضعتم في الفتنة، واضطجعتم في مراقد الضلال.

والله لأحزمنكم حزم السلمة، ولأضربنكم ضرب غرائب الإبل؛ فإنكم لكأهل قرية كانت آمنة مطمئنة يأتيها رزقها رغداً من كل مكان، فكفرت بأنعم الله فأذاقها الله لباس الجوع والخوف بما كانوا يصنعون. وإني والله ما أقول إلا وفيت، ولا أهم إلا أمضيت، ولا أخلق إلا فرّيت. وإن أمير المؤمنين أمرني بإعطائكم أعطياتكم وأن أوجهكم إلى محاربة عدوكم مع المهلب بن أبي صفرة. وإني أقسم بالله لا أجد رجلاً تخلف بعد أخذ عطاءه بثلاثة أيام إلا ضربت عنقه.

الكتابة

كان أولياء العرب في الصدر الأول كتباً بالطبع يملون أو يكتبون ما يريدون بأسلوب موجز ولفظ فصيح. فلما امتدّت ظلال الخلافة وفاضت موارد الفيء اضطهرهم ضبط ذلك إلى إنشاء الدواوين فدونها عمر. ثم عهد الخلفاء بالكتابة فيها إلى العرب والمزالي والمتعربين. وظلت كتابة الخراج في الأقاليم بلغة أهل المصمر: ففي العراق وفارس بالفارسية، وفي الشام بالرومية، وفي مصر بالقبطية حتى حذقها من العرب طائفة صالحة سدوا حاجة الدواوين فحوّلت كلها إلى العربية في عهد عبد الملك بن مروان وابنه الوليد.

ثم ثقلت أعباء الدولة على الخلفاء فاتخذوا نواميس من كتاب العرب وأدباء الموالي، وفي هؤلاء من وقف على أنظمة الفرس والروم فوضعوا للرسائل قيوداً وحدوداً أو شكت أن تصير بها صناعة.

أما أسلوبها فكان جزل الألفاظ، فخم التراكيب، واقفاً عند الغرض، خالياً من التطويل والتجميل والمبالغة، جارية فيه الضمائر على قانون الوضع، فلا تستعمل ضمائر الجمع في كلام المتكلم وخطاب الواحد وكانت تبدأ بالسّملة وقولهم: من فلان إلى فلان، أما بعد. أو إني أحمد إليك الله الذي لا إله إلا هو. وتختتم بالسلام، أو بقولهم: والسلام على من أتبع الهدى. فلما ولى الخلافة الوليد بن عبد الملك أمر بتجويد القراطيس، وتفخيم الخطاب، وألا يكتب بمثل ما تكتب به السوق. وجرى العمل على ذلك من بعده، حتى استخلف عمر بن عبد العزيز، ثم يزيد بن عبد الملك، فحملهما الورع ومقت البدعة على الرجوع بالكتابة إلى نهج السلف.

على أن نظام الكون وطبيعة الناس في هذا العهد ألباً هذا الجمود، فجاء عبد الحميد الكاتب فأسهب في الرسائل ونمقها ورققها وأطال التحميداء. في أولها وتبعه في ذلك سائر الكتاب. وجملة القول أن النثر في أربعين سنة خطا في سبيل الكمال بفضل الدين والفتوح خطوة واسعة، فانقلت من السجعات القصيرة المفككة، والمعاني العامة المجملة، إلى هذا

الأسلوب المحكم الفير، المطرد السياق، المختلف الغرض، العميق الأثر، كما ترى في رسائل الإمام عليّ وخطبه وهو تقدم سريع لم يظفر بمثله الشعر.

الكتاب

٢٩ - عبد الحميد بن يحيى

٠٠٠ - ٧٥٠ م

٠٠٠ - ١٣٢ هـ

نشأته وحياته:

نشأ أبو غالب عبد الحميد بن يحيى بالشام من سلاله غير عربية، ونُسب إلى بني عامر نسبة ولاءية. ثَقَّف الكتابة على سالم مولني هشام بن عبد الملك وكاتب سره ثم أخذ يمارس تعليم الصبية يجوب إلى ذلك البلد بعد البلد حتى علم بمكانته مروان بن محمد فاستكتبه أيام ولاية عليّ أرمينية فكتب له ونفق عنده وتأكدت بينهما المودة. فلما جاء البشير بمبايعة أهل الشام لمروان بالخلافة سجد لله شكراً وسجد أصحابه إلا عبد الحميد. فقال له مروان: لم لا تسجد؟ فقال: ولم أسجد؟ أعلى أن كنت معنا فطرت عنا؟ فقال: إذن تطير معي. فقال: الآن طالب السجود. وسجد. فاتخذ مروان كاتب دولته. ولما هاله خفوق الألوية السود ودنوُّ أبي مسلم وتتابع الفشل قال لعبد الحميد: قد احتجت أن تصير مع عدوي، وتظهر الغدر بي، فإن إعجابهم بأدبك، وحاجتهم إلى كتابتك، تحوَّجهم إلى حسن الظن بك. فإن استطعت أن تنفعي في حياتي، وإلا لم تعجز عن حفظ حُرْمِي بعد مماتي. فقال له عبد الحميد: إن الذي أشرت به عليّ أنفع الأمرين لك وأقبحهما بي، ما عندي إلا الصبر حتى يفتح الله عليك أو أقتل معك، وأنشد:

أسيرٌ وفاء ثم أظهر غُدرةً فمن لي بعذر يوسع الناس ظاهره؟

ومكث معه حتى قتل مروان بمصر، فلجأ إلى صديقه عبد الله بن المقفع بالبحرين ففاجأه الطلب وهو في بيته. فقال الذين دخلوا عليهما: أيكما عبد الحميد؟ فقال كل منهم: أنا. مخافة علي صاحبه. وأوشك الجند أن يقتلوا ابن المقفع لولا أن صاح بهم عبد الحميد قائلاً: ترفقوا بنا فإن لكل منا علامات، فوكّلوا بنا بعضكم وليمض البعض الآخر إلى من وجّهكم فيذكر له تلك العلامات، ففعلوا وأخذ عبد الحميد فقتل سنة ١٣٢ هـ.

٢٩ - انظر ترجمته في: مروج الذهب: ٢٦٣/٣، وثمار القلوب: ص ١٩٦، وأمرء البيان: ٣٨/١ - ٩٨، والشريشي: ٢٥٣/٢، وصبح الأعش: ١٠/١٩٥، والوزراء والكتاب: ٧٢ - ٨٣، والصناعتين: ص ٦٩، وعيون الأخبار: ٢٦/١، والبيان والتبيين: ٩/٣، والأعلام للزركلي: ٢٨٩/٣.

أثره في الكتابة:

كانت الكتابة قبل عبد الحميد حديثاً مكتوباً لا ترجع إلى نظام ولا تحور إلى فن ولا تعد في الصناعات الشريفة. فلما تقلدها كانت الحال داعية والنفوس مهياة إلى فن من الكتابة جديد، فإن تشعب أطراف الدولة، وبدؤ ثمار الحضارة، وزهو النثر والخطابة ودنو العربية من الفارسية وتخرج عبد الحميد على سالم مولى هشام، وصلته الوثيقة بابن المقفع، كانت سبباً في ظهور هذا النمط الجديد في أسلوب عبد الحميد. فقد نوع الخطاب موافقة لحال المخاطب، وأوجز وأطنب مراعاة لمقتضى الحال، وتفنن في البدء والختام مطابقة للغرض، وأطال التحميدات في صدور الرسائل، وسار على أثره المترسلون فأصبحت الكتابة صناعة محررة الأصول مميزة الفصول مبنية القواعد.

أسلوبه:

أسلوب عبد الحميد عذب المورد صافي الدياتجة، يسي المشاعر ويفعل بالألباب فعل السحر. وقد عرف الناس له ذلك حتى إن أبا مسلم الخراساني أبي أن يقرأ الكتاب الذي كتبه إليه عن لسان مروان يستجلبه به ويستميله، ثم أحرقه إشفاقاً على نفسه من تأثيره؛ وكتب على جذاذة منه إلى مروان:

محا السيفُ أسطارَ البلاغة وانتحي
عليك ليوثُ الغاب من كل جانب

نموذج من نثره:

كتب إلى أهله وهو منهزم مع مروان:

أما بعد، فإن الله تعالى جعل الدنيا محفوفة بالكره والسرور، فمن ساعده الحظ فيها سكن إليها، ومن عضته بناهبا ذمها ساخطاً عليها، وشكاها مستزيداً لها، وقد كانت أذاقتنا أفوايق استحليناها ثم جمحت بنا نافرة، ورمحتنا مولىة، فملح عذبتها، وخشن لينها، فأبعدتنا عن الأوطان، وفرقتنا عن الإخوان، فالدار نازحة، والطير بارحة. وقد كتبت والأيام تزيدنا منكم بعداً، وإليكم وجداً؛ فإن تتم البلية إلى أقصى مدتها يكن آخر العهد بكم وينا. وإن يلحقنا ظفر جارح من أظفار عدونا نرجع إليكم بذل الإسار، والذل شر جار. نسأل الله تعالى الذي يعز من يشاء ويذل من يشاء، أن يهب لنا ولكم ألفة جامعة، في دار أمنة، تجمع سلامة الأبدان والأديان، فإنه رب العالمين وأرحم الراحمين.

وقال من وصيته للكتاب، وفيها دلالة على أن الكتابة صارت صناعة، وأن الكتاب أصبحوا جماعة.

..... وإياكم والكبر والسُخف والعظمة، فإنها عداوة مجتلبة من غير إحتية، وتحابوا في الله عز وجل في صناعتكم وتواصوا عليها بالتبي هي أليق لأهل الفضل

والعدل والنبل من سلفكم . وإن نبا الزمان برجل منكم فاعطفوا عليه وواسوه حتى يرجع إليه حاله، ويثوب إليه أمره . وإن أقعد أحداً منكم الكبر عن مكسبه ولقاء إخوانه فزوروه وعظموه وشاوروه واستظهروا بفضل تجربته وقديم معرفته .

وكتب في التوصية بشخص : حقّ موصل كتابي عليك كحقه عليّ، إذ جعلك موضعاً لأمله، ورآني أهلاً لحاجته . وقد أنجزت حاجته، فصّدق أمله .

نماذج من الشتر

الحِكم:

من حِكم أبي بكر رضي الله عنه قوله :

صنائع المعروف تقي مصارع السوء . الموت أهون مما بعده وأشد مما قبله . ثلاث من كنّ فيه كنّ عليه : البغي والنكث والمكر .

ولعمر رضي الله عنه : من كتم سره كان الخيار في يده . مرّ ذوي القربيات أن يتزاوروا ولا يتجاوروا . أشكوا إلى الله ضعف الأمين وخيانة القويّ .

وقال علي كرم الله وجهه : رأي الشيخ خير من جلد الغلام . الناس أعداء ما جهلوا . قيمة كل امرئ ما يحسن .

الخطب:

خطب الرسول ﷺ ذات يوم فحمد الله بما هو أهله ثم أقبل على الناس فقال :

أيها الناس ! إن لكم معالم فانتهاوا إلى معالمكم . وإن لكم نهاية فانتهاوا إلى نهايتكم ؛ فإن العبد بين مخالفتين : أجل قد مضى فلا يدري ما الله فاعل به، وأجل باق لا يدري ما الله قاض فيه . فليأخذ العبد من نفسه لنفسه، ومن دنياه لآخرته، ومن الشيبة قبل الكبر، ومن الحياة قبل الممات . فوالذي نفس محمد بيده، ما بعد الموت من مستعجب، ولا بعد الدنيا من دار، إلا الجنة والنار .

وقام أبو بكر يوم السقيفة وقد اختلف المهاجرون والأنصار في أمر الخلافة فحمد الله وأثنى عليه ثم قال :

أيها الناس ! نحن المهاجرين أول الناس إسلاماً، وأكرمهم أحساباً، وأوسطهم داراً، وأحسنهم وجوهاً، وأكثرهم ولادة في العرب . وأمّهم رحماً برسول الله ﷺ . أسلمنا قبلكم، وقلمنا في القرآن عليكم، فقال تبارك وتعالى : ﴿وَالسَّابِقُونَ الْأُولُونَ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ﴾

وَالْأَنْصَارِ وَالَّذِينَ اتَّبَعُوهُمْ بِإِحْسَانٍ ﴿١﴾ فنحن المهاجرون وأنتم الأنصار، إخواننا في الدين وشركاؤنا في القيء، وأنصارنا على العدو. آويتم وواسيتم فجزاكم الله خيراً، فنحن الأمراء وأنتم الوزراء. لا تدين العرب إلا لهذا الحي من قريش. فلا تنفَسُوا على إخوانكم المهاجرين ما منحهم الله من فضله.

وصعد معاوية منبر المدينة فحمد الله وأثنى عليه ثم قال:

يا أهل المدينة! إني لا أحب أن تكونوا خلقاً كخلق العراق: يعيون الشيء وهم فيه. كل امرئ منهم شيعة نفسه. فاقبلونا بما فينا. فإن ما وراءنا شر لكم، وإن معروف زماننا هذا منكر زمان مضى، ومنكر زماننا معروف زمان لم يأت. ولو قد أتى فالرُّقُّ خير من الفتق، وفي كل بلاغ، ولا مقام على الرزية.

وخطب الحجاج أهل العراق بعد دير الجماجم قال:

يا أهل العراق! إن الشيطان قد استبطنكم فخالط اللحم والدم والعصب والمسامع والأطراف والشغاف، ثم مضى إلى الأمخاخ والأصماغ، ثم ارتفع فعشش، ثم باض وفرخ، فحشاكم نفاقاً وشقاقاً. وقد اتخذتموه دليلاً تتبعونه، وقائداً تطيعونه، ومؤمراً تستشيرونه. فكيف تنفَعكم تجربة، أو تعظكم وُعة، أو يحجزكم إسلام، أو يردكم إيمان؟ أستم أصحابي بالأهواز، حيث رُمتم المكر وسعيتم بالغدرة، ووطنتم أن الله يخذل دينه وخلافته، وأنا أرميكم بطرفي وأنتم تتسللون لولداً، وتنهزمون سراعاً. ويوم الزاوية! وما يوم الزاوية! بها كان فشلكم وتنازعكم وبراءة الله منكم ونكوص وليه عنكم، إذ وليتم كالإبل الشوارد إلى أوطانها، التوازع إلى أعطانها، لا يسأل المرء منكم عن أخيه، ولا يلوي الشيخ على بنيه، حتى عضضكم السلاح، وقصصتمكم الرماح! ويوم دير الجماجم! وما دير الجماجم؟ بها كانت المعارك والملاحم، بضرب يزيل الهام عن عقيله، ويذهل الخليل عن خليله. يا أهل العراق! أهل الكفريات والغدرات، والشورة بعد الثورات! إن أبعثكم إلى ثغوركم علمتم بوختهم، وإن أستم أرجفتهم، وإن خفتهم نافتهم، لا تذكرون خشية، ولا تشكرون نعمة. هل استخفكم ناكث واستغواكم غاوٍ واستصركم ظالم واستعضدكم خالغ إلا وثقتموه وآويتموه ونصرتموه ورخصتموه؟ هل شغب شاغب أو نعب ناعب إلا كتتم أشياعه وأنصاره؟ ألم تنهكم المواعظ؟ ألم ترجركم الوقائع؟

ثم التفت إلى أهل الشام فقال: يا أهل الشام! إنما أنا لكم كالظليم الذاب عن فراخه، ينفي عنه المدرك ويبعد عنها الحجر، ويكنها من المطر. يا أهل الشام أنتم الجنة والرداء، وأنتم العدة وللخطاء!

(١) سورة: التوبة، الآية: ١٠٠.

الرسائل:

كتب أبو عبيدة بن الجراح ومعاذ بن جبل إلى أمير المؤمنين عمر بن الخطاب ينصحانه:

من أبي عبيدة بن الجراح ومعاذ بن جبل إلى عمر بن الخطاب، سلام عليك، فإننا نحمد إليك الله الذي لا إله إلا هو. أما بعد فإننا عهدناك وأمر نفسك لك مهم، فأصبحت وقد وليت أمر هذه الأمة أحمرها وأسودها، يجلس بين يديك الصديق والعدو، والشريف والوضيع، ولكل حصة من العدل. فانظر كيف أنت يا عمر عند ذلك. وإننا نحتفرك يوماً تغفرو فيه الوجوه، وتجب له القلوب، وتنقطع فيه الحجج، بحجة ملك قهرهم بجبروته والخلق دائرون له، يرجون رحمته ويخافون عقابه. وإننا كنا نتحدث أن أمر هذه الأمة يرجع في آخر زمانها أن يكون إخوان العلانية أعداء السريرة. وإننا نعوذ بالله أن تنزل كتابنا سوى المنزل الذي نزل من قلوبنا، فإننا إنما كتبنا إليك نصيحة لك والسلام.

وكتب عبد الله بن معاوية بن عبد الله بن جعفر إلى بعض إخوانه يعاتبه:

أما بعد فقد عاقني الشك في أمرك عن عزيمة الرأي فيك. وذلك أنك ابتدأتني بلطف من غير خبرة، ثم أعقتني جفاء من غير جزيرة، فأظنمني أولك في إحتالك، وأبلسني آخرك من فائك. فلا أنا في اليوم مجمع لك أطراحاً، ولا أنا في غد وانتظاره منك على ثقة. مسبحان من لو شاء كشف بليضاح الرأي في أمرك عن عزيمة الشك فيك، ففجتمنا على اتلاف، أو افترقنا على اختلاف، والسلام.

الوصايا:

أوصى علي بن أبي طالب ولده الحسن قال:

احفظ عني أربعاً وأربعاً لا يضررك ما عملت مهين: أغنى الضنى العقل، وأكبر الفقر الحمق، وأوحش الوحشه العجب، وأكرم الحسب حسن الخلق. يا بني! إليك ومصادقة الأحمق، فإنه يريد أن يفضلك فيضرك، وإياك ومصادقة البخيل، فإنه يبعد عنك أحمق ما تكون إليه. وإياك ومصادقة الفاجر، فإنه يبيعك بالتافه. وإياك ومصادقة الكذاب، فإنه كالسراب يقرب عليك البعيد، ويبعد عنك القريب.

وأوصى قيس بن عاصم المنقري بنه عند احتضاره قال:

يا بني احفظوا عني ثلاثاً، فلا أحد أنصح لكم مني: إذا أنا مت فسودوا كباركم، ولا تسودوا صغاركم، فيحقر الناس كباركم وتهونوا عليهم. وعليكم بحفظ المال، فإنه منبهة للكرام، ويستغني به عن اللثيم، وإياكم والمسألة فإنه أحسن كسب الرجل.

اللحن ونشوء العامية :

كان من أثر الأسواق والحج وزعامة قريش أن توحدت في الجاهلية لغات العرب، وتمثلت لهجاتها في لغة قريش؛ فلم يبق إلا بيض اللحن على أطراف المنطق. فلما جاء الإسلام، ونزل بها القرآن، وكان من بينها النبي الكريم والقائمون بالأمر بعده، تمت لها الغلبة. فخضعت لها الألسنة، وهويت إليها الأفئدة، وأصبحت لسان النبوة والملك، ولغة الحضارة والعلم، في أقطار المسلمين كافة. ولما كان الإسلام انقلاباً عظيماً له تأثيره في الأخلاق والطباع، وتغييره في السياسة والاجتماع، لم يكن للغة بُدٌ من الخضوع له والتأثر به، فأتسعت مادتها وتشعبت أغراضها بالتعبير عن عقائد الدين، وأنظمة الملك، ومقتضيات الحضارة، ومصطلحات العلوم. وتهذبت ألفاظها ورقت أساليبها بما أثر في طباع القوم من بلاغة القرآن، وبشاشة الإسلام، وجمال المدنية، وتنوع المناظر الحضارية.

ثم كان من أثر الإسلام في حياة العرب أيضاً أن محا العصبية، وأزال الفوارق الاجتماعية وغير مقاييس السيادة فجعلها بالتقوى والعبادة، وجمع شتات القبائل على عقيدة واحدة، وضم نشرهم تحت راية جامعة. ثم خرج بهم من شبه الجزيرة إلى جهاد الشرك بالقرآن والسيف، فأوطأهم ديار كسرى وقصر، وأوغل بهم في الأرض نصراً وفتحاً حتى ركزوا أعلامهم في أقصى الشرق وأدنى الغرب. ومنذ يومئذ لم تعد العربية لغة إقليم واحد ولا لسان شعب واحد، وإنما انحدرت مع الإسلام من بوادي الحجاز ونجد إلى حواضر البصرة والكوفة ودمشق وبغداد وقرطبة ومصر. واستفاضت على ألسنة المسلمين أحمرهم وأسودهم، والمتعربين أديانهم وأبعدهم، وليس في مقدور هؤلاء بطبيعة الخلق، أن ينطقوا بها كأهلها، فارتضخوا أنواعاً من اللكنة، وأحدثوا أوضاعاً من الخطأ، علقت بألسنة المستضعفين من العرب والناشئين منهم بين الموالي. ولذلك ظهر اللحن في الحواضر والمدن دون البادية، فقد بقيت اللغة على خلوصها فيها حتى آخر القرن الرابع بدت أعراض هذا الداء منذ زمن الرسول ﷺ. ثم أخذ يستفحل كلما توفرت أسبابه حتى فشا في الدولة الأموية فشواً تناول الخلفاء والخاصة. وخيف منه على القرآن فوضعوا له النحو والشكل والإعجام والنقط. على أن كل ذلك لم يعصم اللغة ولم يصد عنها عادية اللحن، فأمعن العامة في التصحيف والتحريف حتى جعلوا اللغة لغتين: لغة الكتابة ولغة المحادثة كما هي الآن.

النحو:

يروى المؤرخون أن أبا الأسود الدؤلي المتوفى سنة 69 هـ هو واضع مبادئ النحو، وأن السبب الذي حدهاه إلى التفكير فيه هو نشوء اللحن وهجوم العجمة. وذكروا في ذلك أنه دخل يوماً على زياد بن أبيه وهو والي العراقيين، فقال له: «أصلح الله الأمير! إني أرى

العرب قد خالطت هذه الأعاجم ففسدت ألسنتهم. أفأذن لي أن أضع لهم ما يقيمون به كلامهم؟ «فأبى عليه ذلك زياد ثم عاد فأمره بما نهاه عنه، لأنه سمع اللحن بأذنه من رجل دخل عليه يقول: «أصلح الله الأمير. توفي أبانا وترك بنون...» فوضع أبو الأسود باب التعجب ثم باب الفاعل والمفعول، وأخذ كلما سمع لحنه وضع القاعدة التي تصلحها. ثم تناوله منه أدباء البصرة والكوفة فكملوه وفصلوه كما سنذكر ذلك بعد. والغالب في ظننا أن أبا الأسود لم يضع النحو والنقط من ذات نفسه وإنشائه، وإنما يرجع أنه أَلِّمَ بالسريانية (وقد وُضِعَ نَحْوُهَا قَبْلَ الْعَرَبِيَّةِ) أو اتصل بقساوستها وأجبارها فساعده ذلك على وضع ما وضع. وعلى أية حال فإن أولية النحو لا تزال مجهولة.

العلم في العصر الأموي:

لم تكن نفوس العرب مهية بعد إلى العلم، ولا عقولهم ناضجة للبحث فيه؛ وإنما توزعتهم عواطف الدين وشواغل الفتح ونوازع الأدب، فاكثفوا منه بالضرورة الموروث كالطب والنجوم. حتى إذا هالهم اللحن ودهمتهم العجمة، وتشعبت عليهم الأقضية، وضعوا النحو لضبط القرآن، والتفسير لحل مشكلة، والفقهاء لاستنباط الأحكام منه، ودنوا الحديث خوفاً من ضياعه أو افتعاله.

واقضت حُنْكَ معاوية وحكمة خلفائه أن يستعينوا في تأييد ملكهم وتثبيت حكمهم بتجارب الماضين وأخبارهم، فألف عبيد بن شربة كتاب الملوك وأخبار الماضين لمعاوية، وربما كتب غيره غيره، ولكن شيئاً من ذلك لم يأتنا علمه. أما ترجمة العلوم الأجنبية فلم تُعْنِ أحداً في هذا العصر، اللهم إلا خالد بن يزيد حفيد معاوية، فقد قيل إنه انصرف إلى العلم بعد فشله في الملك، واستقدم جماعة من مدرسة الإسكندرية علموه الكيمياء وترجموا له شيئاً منها.

وجملة القول في هذا العصر أن كان فيه نُضْجُ الآداب الجاهلية، ونشوء العلوم الإسلامية، وبداية النقل من العلوم الأجنبية.

الخط بعد الإسلام:

جاء الإسلام وما يكتب من العرب غير بضعة عشر رجلاً من قريش وبعض أهل المدينة وتجار اليهود. فلما كتب الله النصر للمسلمين على قريش في يوم بدر وأخذ بعض كتابهم أسرى، قبل الرسول ﷺ من هؤلاء أن يفتدي كل منهم نفسه بتعليم عشرة من أطفال المسلمين الكتابة، فكثر سواد الكتّاب من أهل المدينة. وشاعت الكتابة بعد ذلك في العرب إطاعةً لأمر الرسول، ورغبة في كتابة القرآن، وطمعاً في دخول الدواوين، وانتشرت معهم في الأقطار المفتوحة.

وكان الخط في أول أمره: خالياً من الإعجم، والشكل، حتى فقد اللحن، وخيف منه على القرآن، فضبط أبو الأسود الدؤلي في زمان معلومة وأواخر الكلام في المصاحف بالنقط، فجعل علامة الفتحة: نقطة، من فوق الحرف، وعلامة الكسرة: نقطة من أسفله، وعلامة الضمة: نقطة بين يديه، واستعمل الناس هذه النقط وكتبوها بمداد مختلف، فلما تعاليرت أشكال الخط، وتشابهت أوضاع الحروف، فلثبتت الحميم بالنقط، والذال بالذال، والسين والشين، أمر الحجاج نصر بن عاصم ويحيى بن يعمر تلميذي أبي الأسود فوضع الإعجم بالمداد الذي تكتب به الكلمة تميزاً للحروف بعضها من بعض، ثم جاء بعد ذلك الخطيل بن أحمد ووضع الشكل على هذا النمط المعروف، فضل نقط أبي الأسود.

وفي العصر العباسي ناله ما نال كل شيء فيه من النمو والتقدم فقد تنافس الكتاب في تجويده، وتفننوا في تنويجه، وخالفوا بين أوضاعه في بغداد وأوضاعه في الكوفة، باختراع الأقلام المختلفة كالقلم الفرصع، وقلم السليخ، والقلم الريسي (نسبة إلى مخترعه ذي الرياستين الفضل بن سهل)، ثم تعددت تلك الأقلام وتوعدت حتى نيفت أشكال الكوفي على عشرين شكلاً. أما الخط النسخي فقد كان مستعملاً بين الناس في غير الكتابة الرسمية حتى جاء أبو علي محمد بن مقله المتوفى سنة ٣٢٨ هـ فجود هذا الخط ونمقه حتى تميز من أصله بالحسن والجملة، واستعمل في كتابة المصاحف وأدخل في اللواوين، وجاء بعده علي بن هلال المتوفى سنة ٤١٣ هـ فزاد في تهذيبه وتحسينه حتى حل محل الكوفي، ثم تنوع الخط النسخي إلى عدة أقلام (كنالطومار) وعروض قفطته أربع وعشرون شعيرة من شعور البرون، أو ثلاثة ملليمترات، (والثلثين) وعرضه ملليمتران، (والنصف) وقيلسه ملليمتر ونصف، (والثلث) وعرضه ملليمتر واحد، ثم تشدج الأقلام في الدقة، فيجىء خفيف الثلث، فللؤلؤ، فلتوقيع، فلرقلع، فالحقق، فالعبار، وهو أرقها، وبه كانت تكتب بطائق الحمام الزاجل ونحوها، ولا يزال الخط العربي يتنوع ويتفرع خصوصاً لنظم الطبيعة في الشجر والرفق، وكثير من الأعم التي استضاءت بنور الإسلام واستعرت بلغة يكتب به، كالفارسية والأفغانية والأردية واللغات الإفريقية.

على أن اقتصار العرب في خطهم على رسم الحروف السلكة دون الصوتية قد أوقع القارئ في لس شديد، فإن الكتاب قد برمو بالشكل وضاقوا به فتركوه فأصبح القارئ إذا رأى أمامه لفظ (علم) مكتوبة مثلاً لا يدري كيف يقرأه إلا إذا فهم المقصود منه في سياق الكلام، فهو يقرأ: علم أو علم أو علم أو علم أو علم أو علم، ولذلك يدعو كثير من المصلحين اليوم إلى إصلاح الخط العربي، حتى غلا بعضهم فدعوا إلى اتخاذ الحروف اللاتينية كما فعلت تركيا بعد سقوط الخلافة، وقد رصد مجمع اللغة العربية بالقاهرة جائزة قدرها ألف جنيه لمن يتكرو طريقة للخط العربي تكمل نقصه وترفع قصوره، فيجاءته من أكثر البلدان الشرقية والغربية طرق شتى نيفت على الألف، ولكنها لم تصب الغرض الذي نصبه

المجمع، فألف في عام ١٩٥٩ لجنة من بعض أعضائه ومن ذوي الاختصاص بوزارة التربية والتعليم في الجمهورية العربية المتحدة فليت الأمر على جميع وجوهه ثم اتفقت على بقاء الخط كما هو وأوصت باتباع الشكل كاملاً في كتب التعليم الابتدائي ثم يقل بالتدرج في المراحل المتعاقبة حتى يقتصر منه على شكل ما يشكل من الكلمات، ويرأبها أخذ المجمع.